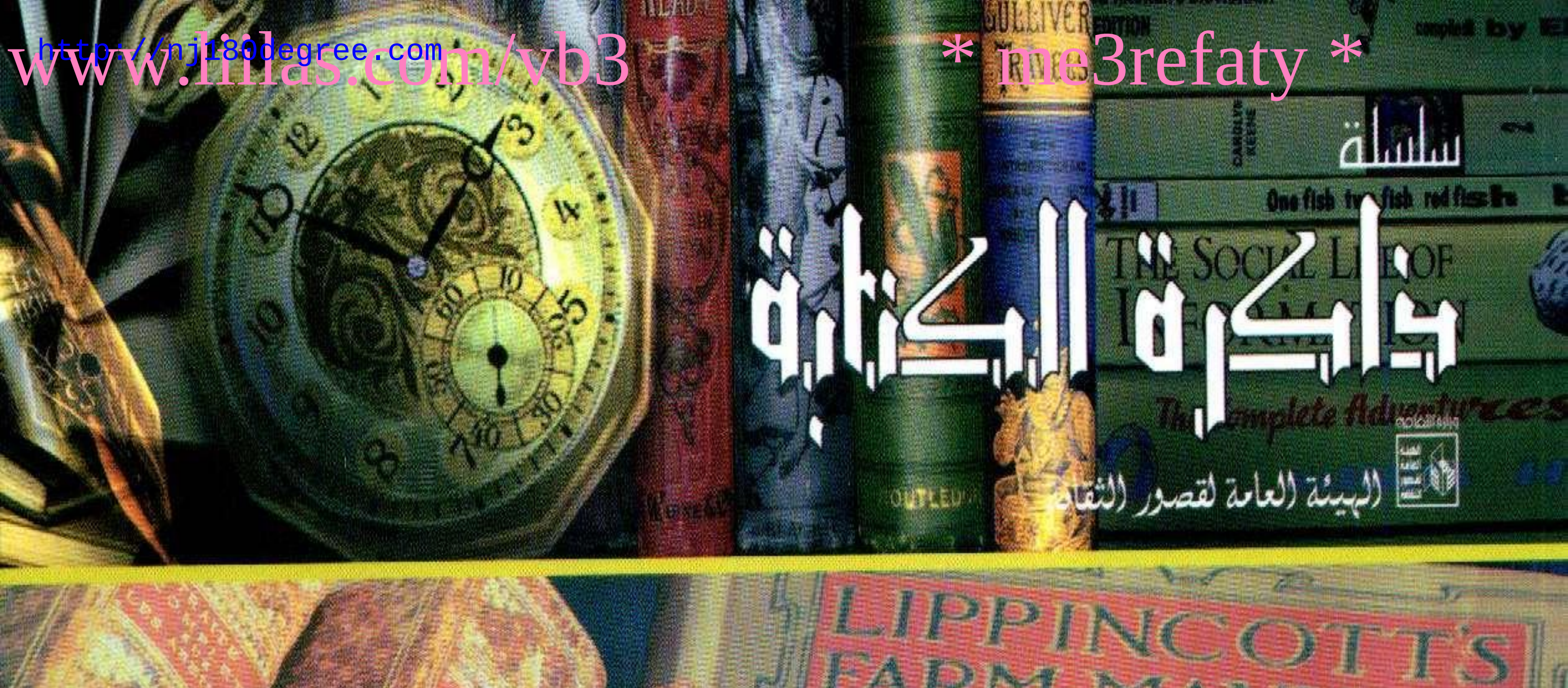


أدب وعروبة وحرية

88

رجاء النقاش

2008

أدب وعروبة وحرية

أدب وعروبة وحرية

رجاء النقاش



سلسلة
ذاكرة الكتابة
تصدرها
الهيئة العامة لقصور الثقافة

رئيس مجلس الإدارة
د. أحمد مجاهد
الإشراف العام
د. زينب العسال
الإشراف الفنى
د. خالد سرور

ذاكرة الكتابة 88
تعنى بنشر أبرز الأعمال الفكرية والأدبية والنقدية التى طبعت فى بدايات القرن العشرين

• أدب وعروبة وحرية
• رجاء النقاش
• الطبعة الأولى:
الهيئة العامة لقصور الثقافة
القاهرة - 2008 م
144ص، 16,5 × 23,5 سم
• تصميم الغلاف: فكرى يونس
• رقم الإيداع: ٢٠٠٨/١٤١٨٣
• الترقيم الدولى: 977-437-810-5
• المراسلات:
باسم / مدير التحرير
على العنوان التالى: 16 أ شارع أمين سامى - القصر العينى
القاهرة - رقم بريدى 11561
ت: 27947891 (داخلى: 180)

• الطباعة والتنفيذ:
شركة الأمل للطباعة والنشر
ت: 23904096

النقاش .. أدب وعروبة

رحم الله الكاتب الكبير رجاء النقاش فقد كان طرازاً فريدا من المثقفين المحترمين، كما كان نموذجاً فذاً وفريداً للكاتب الحر الملتزم ذى الجرأة والموضوعية فى آن.

اكتسب رجاء النقاش عبر سنوات طويلة من الكتابة المناضلة فى سبيل ما يؤمن به من أفكار مستنيرة وقيم رفيعة ومبادىء سامية تقدير واحترام الجميع.. ولا يكاد يختلف اثنان من قرائه فى مصر وسائر البلدان العربية على حقيقة أنه "كاتب ذو مصداقية عالية" فى أغلب إن لم يكن كل ما كتب.

حتى أولئك الذين اشتبكوا مع رجاء النقاش وخاضوا ضده أو خاض ضدهم معارك حقيقية حول كثير من المواقف والقضايا فإنهم كانوا دائماً يعرفون له قدره ومكانته، ولذلك فإن اختلافهم معه – إلا القليل منهم من ذوى الهوى والغرض- لم ينتقص من احترامهم لشخصه وتقديرهم لأفكاره ووجهات نظره.

لقد كان رجاء النقاش حريصاً على التحلى دائماً بروح الفروسية فى كل مواقفه، وكان على الدوام الخصم الشريف عف اللسان إن تكلم، وعف القلم إن كتب.. عندما يخطىء لا تأخذه العزة بالإثم فيصر على أنه على صواب بل لديه الشجاعة الكافية لأن يعترف بخطئه وينتصف لخصمه من نفسه قبل أن يتنصف منه الآخرون.

إن رحيل رجاء يعد بلا شك خسارة كبيرة للحياة الثقافية العربية بعامة والمصرية بصفة خاصة، وقد فقدت الهيئة العامة لقصور الثقافة برحيله دوراً فاعلاً وقوة دفع فى موقعين فقد ساهم من خلالهما فى تطور أداء الهيئة وأكسبها الكثير من المصداقية لدى روادها.

كان رجاء النقاش عضواً لسنوات فى مجلس إدارة الهيئة .. شارك بأفكاره ومقترحاته ومناقشاته فى تطوير أداء الهيئة، وتولى لسنوات أيضا رئاسة تحرير سلسلة "ذاكرة الكتابة" .. جاء فى هذا الموقع بعد رحيل الناقد الكبير د. عبد القادر القط فكان خير خلف لخير سلف، وعلى يديه رسخت السلسلة مكانتها لدى جمهورها

من القراء، وحققت السلسلة نقلة نوعية فى مستوى إصدارتها حتى غدت الآن هى وسلسلة "الذخائر" أشهر سلسلتين ثقافيتين تصدران عن الهيئة العامة لقصور الثقافة.

ومن دواعى سرورنا وسعادتنا أن تبدأ السلسلة مرحلة ما بعد رجاء النقاش بكتاب من كتبه اختاره لنا أخوه الكاتب المسرحى فكرى النقاش هذا الكتاب هو كتاب "أدب وعروبة وحرية".

والكتاب عبارة عن مجموعة من المقالات كتبها رجاء النقاش منذ أكثر من أربعين عاما وتدور هذه المقالات حول محاور فكرية ثلاثة هى: الأدب والعروبة والحرية.

ربما لم تعد بعض الأفكار والآراء التى احتواها الكتاب صالحة الآن لأن الزمن قد تجاوزها أو أن تيار الأحداث قد جرف فى طريقه الكثير منها، وربما لم يفقد بعضها الآخر صلاحيته إلا أنه فقد ما كان له فى حقبتى الخمسينيات والستينيات من شيعة وأنصار.. ومن المحتمل أن رجاء النقاش قد عدل عن أو عدل من قليل أو كثير من هذه الأفكار والآراء إلا أن ما هو مؤكد أن الكتاب لا يزال يحمل بين سطوره جوهر موقف رجاء النقاش فى كثير من القضايا التى تتفرع إليها محاور الكتاب: الأدب والعروبة والحرية.

ما يزال الكتاب مثلاً يعبر عن إيمان رجاء بالعروبة كرابطة قومية جامعة وكهوية ثقافية مميزة للشعوب العربية جميعاً، وما يزال الكتاب أيضاً يحمل رفض رجاء النقاش القاطع لمختلف التوجهات الشعوبية سواء فى مجال الأدب أو السياسة، وما يزال الكتاب يحمل قناعته الراسخة بأن الفن ليس متعة خالصة لا هدف لها إلا أن نستمتع بها، وأن الأدب لا يمكن أن نفرض عليه وجهة نظر يعبر عنها فلا يرى الأديب غيرها ويظل ملتزما بها فى حدودها الضيقة، وما زال الكتاب أيضاً يحمل رؤيته الواضحة فى أن الفنان الموهوب هو الذى يجمع بين القيمة الفنية والقيمة الإنسانية الكبرى، وأن الأدب ساهم فى تغيير العالم إلى الأرقى والأفضل.. وغير ذلك الكثير والكثير نترك القارىء ليتعرف عليه بنفسه.

مرة أخرى رحم الله الكاتب الكبير رجاء النقاش.

سعد عبد الرحمن

فى المقدمة

لست من المؤمنين بأن الأدب متعة خالصة لاهدف لها الا أن نستمتع بها ، ولست من المؤمنين بأن الأدب يمكن أن نفرض عليه وجهة نظر يعبر عنها ، فلا يرى الاديب غيرها ويظل ملتزما بحدودها الضيقة ، ولكننى من المؤمنين بأن الفنان الموهوب هو الذى يجمع بين القيمة الفنية العميقة ، والقيمة الانسانية الكبيرة ، فالأديب يساهم فى تغيير العالم الى أرقى وأفضل . ولكن ماهو سلاحه ؟ ان سلاحه هو الفن الاصيل الجميل ... فلو كان فنه رديئا لأصبح مثل الذى يستخدم أسلحة فاسدة ضررها عظيم ونفعها معدوم . ولقد كانت شاعرية (تشيكوف) وقدرته الفنية الراقية أعظم أسلحته فى التأثير على ضمير الناس الذين قرءوه فى كل مكان من العالم . وهكذا الأمر مع كل فنان عظيم .

هذه هى الفكرة التى تسيطر على المقالات التى يضمها هذا الكتاب .

ولذلك امتزج فيها الايمان بالجمال الادبى والاهتمام بالمشكلات الواقعية التى يعانيها الانسان فى الوطن العربى . وقد تعرضت لهذه المشكلات كما أحسست بها فى حدود رؤيتى العقلية والوجدانية خلال العامين الماضيين ، ولقد كانا فى حياة الأمة العربية عامين حاسمين ، انفجرت فيهما الاحداث المتتالية فكشفت أمام المواطنين كثيرا من المشكلات . وأوضحت كثيرا مما كان غامضا أو خافيا على الأعين .

لعلى بهذه المقالات أكون قد أسهمت ولو بقسط متواضع بسيط فى تاريخ حياتنا الفكرية فى هذين العاملين الحاسمين ، وفى تسجيل

التطورات التى حدثت فى فهمنا الأدبى ، وفى فهمنا للعلاقة بين الأدب والسياسة .

انها مجرد محاولة ، كان رائدها دائما هو الايمان الكبير بجمال الأدب ، والايمان الكبير بأن هذا الجمال والمحافظة عليه قادران على الاسهام فى تغيير واقعنا ، وفى تعميق المعنى الانسانى لثورتنا العربية .

رجاء النقاش

الوجدان القومي والوجدان الاشتراكي

المناقشات التى أثارتها مجلة « روز اليوسف » فى الفترة الأخيرة حول ثورة ١٩١٩ تشير الى جانب آخر هام غير الجانب السياسى الذى اهتمت به الزميلة .

هذا الجانب هو تطور وجداننا الأدبى منذ ثورة ١٩١٩ حتى ثورة ١٩٥٢ .

وقد كان أدبنا فى أواخر القرن الماضى أدبا باردا ركيكا لا طعم له ولا لون ولا شخصية ، وكان هذا الأدب يقوم على تقليد الأدب العربى القديم بل على تقليد عصور الانحطاط فى هذا الأدب فكان يهتم اهتماما بالغا بالزخارف اللفظية السقيمة التى قتلت فيه كل نبض انسانى صادق ، وجعلت منه ألغازا يحلها الناس فى أوقات اللهو والعبث والفراغ .

وظهر بريق الأمل سنة ١٨٨١ عندما بدأت مصر تشعر بشىء جديد يملأ قلبها ووجدانها ، لقد أحست بوجودها أمام الغزاة الأجانب الذين كانوا يسيطرون على كل شىء فيها، وبخاصة وظائف الجيش والادارة، كانت مصر خاضعة لحكم عصابة من الأتراك والشراكسة ، وهى عصابة تتمتع بكل الامتيازات العملية والاجتماعية والعلمية وبينما كان العنصر المصرى يعانى من أوضاعه السيئة فى كل ميدان . وكان من أثر هذا الشعور الجديد .. شعور النقمة والطموح والتطلع الى التحرر أن قامت الثورة العرابية ، وكانت هذه الثورة تعبيرا عن الشخصية المصرية الجديدة ، التى بدأت تعثر على نفسها وتقاوم الظلم وتقف على قدميها وتفرض حقوقها على الذين أرادوا أن يسلموها قوتها ويستغلوها .

وفى هذه المرحلة بدأ الأدب يشعر بنبض جديد قوى ، ويخرج من التقليد الركيك الزائف الممسوخ . وقد تم هذا كله على يد البارودى الذى كان شاعرا وزعيما من زعماء الثورة العربية ... نعم ، كان شعره شعره تقليديا ولكنه كان يمتاز بقوة وأصالة وشخصية لم يتوفر شيء منها في أدب المرحلة السابقة .

ولكن الثورة العرابية فشلت ، ودخل الانجليز مصر ، واستمرت السلطة الحاكمة من جانب القصر في خنق أنفاس الشعب واحتقار الشعب الذى كان فى رأى الخديو توفيق « مجموعة من الفلاحين أولاد الكلاب » على حد تعبيره بعد أن دخل القاهرة مع الجيش الانجليزى ، يده فى يد الجنرال ولسلى قائد الغزاة ... أما الانجليز فكانوا ينظرون الى المصريين على أنهم غنيمة من غنائم الامبراطورية يجب استغلالها واستثمارها ، أو بتعبير الانجليز المهذب . يجب تمدينها .

وكانت هذه الانتكاسة سببا فى خمود الروح الوطنية ، وانتشار اليأس والشعور بالهزيمة لفترة طويلة ، ومع بداية القرن العشرين ، وكان قد مضى على الاستعمار الانجليزى عشرون عاما تقريبا ، أخذ الجليد يذوب ، وبدأ الشعور باليأس يتطلع الى التحرر والتمرد ، وكان طبيعيا أن يستمد الاتجاه الجديد قوته من النقطة نفسها التى قامت على أساسها ثورة عرابى : شخصية مصر ، وقوة مصر واستقلالها .

وكان مصطفى كامل هو الذى بذر بذور الاتجاه الجديد فاشتعل وأضاء فى كل الميادين ، وعلى رأسها ميدان الأدب ، كان مصطفى كامل يتغنى بمصر ويناجيها كأنها حبيبة معشوقة . وكان هذا هو أسلوبه المفضل فى كل خطبة . ولذلك فان شوقى عندما رثاه سماه « صب مصر » و « شهيد غرامها » .. ومن أمثلة هذه الخطب التى أصبحت نوعا من قصائد الغزل قول هذا الزعيم العاشق :

« يقول الجهلاء والفقراء فى الادراك انى متهور فى حب مصر ،

وهل يستطيع مصرى أن يتهور فى حب مصر ؟ انه مهما أحبها فلن يبلغ الدرجة التى يدعوه جمالها وجلالها وتاريخها والعظمة اللائقة بها . ألا أيها اللائمون أنظروها وتأملوها وطوفوها واقرءوا صحف ماضيها واسألوا الزائرين لها من أطراف الأرض : هل خلق الله وطنا أعلى مقاما وأسمى شأنا وأجمل طبيعة وأجل آثارا وأغنى تربة وأصفى سماء وأعذب ماء وادعى للحب والشعف من هذا الوطن العزيز ؟ .. اسألوا العالم كله يجبكم بصوت واحد أن مصر هى جنة الدنيا ، وأن شعبا يسكنها ويتوارثها لأكرم الشعوب اذا أعزها ، وأكبرها جناية عليها وعلى نفسه اذا تسامح فى حقها وأسلم أزمتها للأجنبى . انى لو لم أولد مصريا لوددت أن أكون مصريا » .

من هنا بدأ الوجدان القومى الأصيل فى النمو والتطور ، لقد أعاد مصطفى كامل خلقه وصياغته فى هذه الصورة الشاعرية الرقيقة ، بعد أن أصيب بنكسته الاليمة مع فشل الثورة العرابية .. وقد بلغ الوجدان القومى أعلى نقطة فى نموه بقيام ثورة ١٩١٩ ، وفى نتائجها المباشرة بعد ذلك . كانت هذه الثورة ثورة قومية انبثقت من وجدان قومى يريد الاستقلال والدستور والحرية ، يريد ابراز الشخصية الخاصة لمصر المستقلة المتحررة ، القادرة على الوقوف وسط التيارات التى تحاول أن تقضى على شخصيتها ، وتذيبها فى نفوذ الأجانب وفى السيطرة الأجنبية .

كان هذا هو الهدف الأساسى لثورة ١٩١٩ وقد عبر الأدب عن هذا الهدف تعبيرا واضحا ، فأدب ثورة ١٩١٩ هو أدب الوجدان القومى .. أدب شعب يريد أن يثبت وجوده . وشخصيته الخاصة وطابعه المستقل . أدب شعب أحس أنه لا يمكن أن يذوب فى الشخصية التركية ولا فى الشخصية الانجليزية ، وانما يريد أن تكون شخصيته مصرية أولا وأخيرا أمام هذه التيارات الخارجية الطاغية ، وحسبنا أن نلقى نظرة على الانتاج الأدبى البارز فى تلك الفترة لندرك أنه كان أدبا صادرا عن الوجدان القومى أولا وأخيرا .

فأول رواية عربية مصرية ظهرت فى المرحلة التمهيدية لثورة ١٩١٩ هى رواية « زينب » لمحمد حسين هيكل وهذه الرواية صدرت عن وجدوان قومى خالص ، كل ماكان يهدف اليه مؤلفها هو تمجيد مصر والتغنى بها ، فالرواية فى حقيقتها قصة حب لمصر • وحنين الى اظهار شخصيتها بقوة ووضوح • وتأكيد هذه الشخصية والقضاء على كل نزعة لاذابتها فى شخصية أخرى دخيلة •

يقول هيكل مبررا كتابته لرواية زيب :

« لعل الحنين الى وطنى وحده هو الذى دفع بى لكتابة هذه القصة ولولا هذا الحنين ماخط قلمى فيها حرفا ولا رأت هى نور الوجود ، فقد كنت فى باريس طالب علم يوم بدأت أكتبها • وكنت ما أفتأ أعيد أمام نفسى ذكرى ماخلفت ى مصر مما تقع عينى هناك على مثله ، فيعاودنى للوطن حنين فيه عذوبة لذاعة لاتخلو من حنان ولا تخلو من لوعة » •

ذلك مايقوله هيكل عن روايته ، وهو يكشف بوضوح وصراحة عن المعنى الذى كان يشغل الأدباء فى ذلك الحين ، انه المعنى الذى ردده مصطفى كامل فأصبح النغمة السائدة للأدب والفن حتى بعد قيام ثورة ١٩١٩ • وهذا المعنى هو تحديد شخصية مصر وتخليصها من الغموض والضباب اللذين يحيطان بوجودها •

انه معنى ينبع من وجدان قومى لايعرف التفرقة بين فلاح أجير ومالك كبير • لأن الجميع يربط بينهم رابط قومى أصيل ، هو أنهم مصريون يقفون فى وجه الأجانب الذين يهدفون الى تذويب الشخصية المصرية •

ورواية زينب تقوم كلها على وصف الريف المصرى والكشف عما فيه من جمال وسحر وتقريب هذا الريف الى الوجدان والعاطفة ، على اعتبار أن الريف هو الجزء الأساسى والأكبر فى مصر •

والرواية الثانية الهامة بعد زينب فى فجر القصة المصرية هى رواية « عودة الروح » لتوفيق الحكيم • وهى أيضا عمل فنى صادر عن الوجدان القومى • وهدفها هو تمجيد مصر وتأكيد شخصيتها

الخاصة • وقوة هذه الشخصية وامتدادها العميق فى التاريخ • وقد استمد توفيق الحكيم « شعار » الرواية الذى وضعه على غلافها من كتاب الموتى وهو من الأدب المصرى القديم • ففى الجزء الأول أخذ توفيق الحكيم من كتاب الموتى قوله « عندما يصير الزمن الى خلود ، سوف نراك من جديد • لأنك صائر الى هناك حيث الكل فى واحد ، وفى الجزء الثانى من عودة الروح جعل الحكيم شعار هذا الجزء أيضا ماجاء فى كتاب الموتى « انهض ••• انهض ياأوزوريس ، أنا ولدك حوريس جئت أعيد اليك الحياة ، لم يزل لك قلبك الحقيقى ، قلبك الماضى » •

وخلال ثورة ١٩١٩ وبعدها مباشرة أصبحت النغمة السائدة فى التفكير الأدبى هى «خلق أدب مصرى محلى بصور الحياة المصرية» • فظهرت هذه الدعوة على أقلام الكتاب وقامت الجمعيات الأدبية المختلفة تنادى بها ، وحاول الأدباء بالفعل أن يستجيبوا لها فى شعرهم وقصصهم •

وقد امتد هذا الاتجاه الذى خلقه الوجدان القومى الى الميادين الفنية الأخرى • ففى الموسيقى ظهرت عبقرية سيد درويش التى تجاوبت تماما مع الطابع العام لهذه المرحلة ، فخلقت نوعا من الموسيقى التى تعبر عن وجدان قومى أصيل • يهيم بحب مصر ويمد جذوره فى ترابها وتراثها ويعنى أكبر العناية بالتعبير عن البيئات الشعبية فيهاحتى يكون تعبيره أصيلا عميقا • وكثير من الأغانى التى لحنها سيد درويش فى المسرحيات الغنائية أو خارج المسرحيات الغنائية ، يتسم بطابع الغناء لمصر والتعبير عن حبها والدعوة التى تمجيدها وتحريرها • بل لقد وصلت به هذه العاطفة القومية حدا يقرب من العبادة ففى أغنية من تلحينه وتأليفه يقول :

يامصر بعدك مالناش سعادة
لولا اعتقادنا بوجود الهنا
كنا عبدنا النيل عبادة

وظهر الوجدان القومى بقوة فى تماثيل مختار ، وظهر فى الدعوة الفلسفية التى تقول مصر للمصريين ، وظهر حتى فى الدعوات الاجتماعية مثل الدعوة الحارة الملتهبة الى الزواج بالمصريات ونبذ الزواج بالأجنبيات .

تلك هى روح ثورة ١٩١٩ . التى خلقت الوجدان القومى . واستجابت له وحاولت أن تخلق وتحقق أهدافه وأمانيه . وكان الهدف البعيد لهذا الوجدان هو تحقيق شخصية مصر وابرازها كشخصية متميزة والخروج من الانهيار الروحى الذى أصاب المصريين بعد سنوات طويلة من الاحتلال أدت فى النهاية الى ايقاظ الوجدان القومى وثورته واندفاعه .

وكان هذا الوجدان القومى قد استقر وهدأ بعد الحرب العالمية الثانية ، وبدأت المشكلة فى مصر تتغير . وكان أهم وأضخم تغيير هو ظهور « القضية الاجتماعية » جنبا الى جنب مع القضية السياسية ، لم تعد المشكلة هى ايجاد شخصية خاصة لمصر ، ولم تعد المشكلة هى مجرد الاستقلال وجلاء الانجليز . بل أصبحت هناك مطالب أخرى أساسية وجوهرية ، بدأت هذه المطالب تعبر عن نفسها فى كلمات وعبارات مختلفة ، ولكنها كلها كانت ذات معنى واحد . فتارة كانت هذه المطالب تتحدد فى المناداة بتوفير « الغذاء والكساء » وتارة كانت تتحدد فى المناداة بتحديد الملكية الزراعية . وتارة أخرى كانت تأخذ صورة المطالبة بالعدالة الاجتماعية .

وكانت الطبقة العاملة قد زادت عددا ونفوذا وقوة وظهرت الطبقة الوسطى الصغيرة على نطاق واسع . وبدأ هذا الرجل العادى : العامل والفلاح والموظف الصغير يشعر شعورا قويا بضغط الظروف الخارجية عليه . وبحقه فى العدل الاجتماعى . وبدأت مصر تتعرض للأزمات الاقتصادية الكبيرة حتى كانت ميزانيتها تشكو من عجز سنوى دائم فى السنوات العشر السابقة على الثورة بلغ ٣٩ مليونا من الجنيهات سنة ١٩٥١ .

كل ذلك بالاضافة الى صور الشقاء الاجتماعى الظاهرة من بطالة ومرض وجهل . ولم تعد هذه الصور تثير أى نوع من الاحساس الفلسفى الجمالى . فقد كان توفيق الحكيم فى عودة الروح يتغنى بحياة الفلاح ويجد فى بؤسها وشقائها نوعا خفيا عميقا من الجمال . ذلك لأنه يكتب روايته بدافع من وجدان قومى هدفه تمجيد مصر وابراز شخصيتها . وليس هدفه معرفة آلامها واكتشاف ماتعانيه من شقاء فكان كل شىء فى نظره جميلا مادام مصريا .. حتى الألم ، حتى التعاسة والشقاء .

أما الآن فقد أصبحت المشكلة أعمق من وضعها القديم فى ثورة ١٩١٩ ، وأصبحت أكثر اتساعا وشمولا ، واكتسبت لونا جديدا مختلفا وتجمعت كل هذه المقدمات وأدت الى قيام ثورة ١٩٥٢ . وسرعان ما أدركت الثورة الجديدة واجبها الأساسى ، انها ثورة الوجدان الاشتراكى كما كانت ثورة ١٩١٩ ثورة الوجدان القومى . لقد اكتشفت مصر نفسها فى ثورة ١٩١٩ ولكنها تريد أن تبنى نفسها وتدرك علاقاتها العميقة الأصيلة بالعالم فى ثورة ١٩٥٢ . ولذلك كانت الثورة الجديدة ثورة اشتراكية وهى فى الوقت نفسه ثورة عربية لأنها اكتشفت الطابع العربى الأصيل للشخصية المصرية ، وهو الطابع الذى لم تدركه ثورة ١٩١٩ ولم يكن بامكانها فى حدود ظروفها الخاصة أن تدركه .

ومن هنا أصبح الوجدان الاشتراكى هو الوجدان الذى يصدر عنه أدبنا الجديد ، أدب ثورة ١٩٥٢ وأدب مقدمات هذه الثورة ونتائجها . وأى مراجعة للانتاج الأدبى منذ السنوات القليلة السابقة على الثورة الى الآن تؤكد لنا أن أدبنا انما يصدر عن وجدان اشتراكى ، وجدان يعنيه أولا تصوير المأساة الاجتماعية والبحث عن حل لهذه المأساة مع الوعى الدقيق بجذور هذه المأساة فى اقتصادنا القديم وتقاليدنا ، ان الأديب الجديد لايفكر فى تخليص الانسان فى مصر من الانجليز وانما يفكر فى تخليصه من الفقر ، ان

الأديب الجديد يحمل هم الانسان الذى يصارع الطبيعة والظروف الخارجية القاسية لأنه يريد أن يعمل ويأكل ويتعلم وينتصر على المرض

ونستطيع أن نقارن مثلا بين تصوير يوسف ادريس للريف وتصوير هيكل له . ان أية قصة ليوسف ادريس ليس فيها تمجيد القرية بظروفها الراهنة المتخلفة عن الماضى بل فيها نقد واضاءة للجوانب السيئة التى نسعى للتخلص منها . ليس فيها غناء للقرية كما فعل هيكل . بل فيها تصوير وتشخيص .. فيها وجدان يريد أن يغير الواقع ويخلصه مما فيه من سوء ، فيها وجدان اشتراكى . . وانظر الى القاهرة بسحرها .. وعذوبتها وخفة دمها .. كما صورها توفيق الحكيم فى عودة الروح .. انها مدينة بلا مأساة .. وانظر الى القاهرة المكتئبة المحزونة كما صورها نجيب محفوظ .. ناس يحفرون فى الصخر ليتغلبوا على قسوة الحياة .. فيغلبونها مرة وتغلبهم مائة مرة .

ان خط تطورنا منذ مقدمات ثورة ١٩١٩ الى ثورة ١٩٥٢ هو مسيرنا الطويل الصابر من الوجدان القومى المصرى الى الوجدان الاشتراكى العربى .

ولعل العلامة الواضحة الحاسمة التى تكشف هذا التطور هى المقارنة بين خطب مصطفى كامل وخطب جمال عبد الناصر . انخطب مصطفى كامل تفيض شعرا ولهفة . لأنه زعيم مصر المغلوبة علىأمرها أما خطب عبد الناصر فتفيض علما ووعيا وأرقاما ومعرفة بموطن الداء لأنه زعيم مصر العربية التى قررت أن تخرج من عالم القرون الوسطى بأمراضه وفقره وتخلفه ، الى العالم الجديد بمصانعه وايمانه بالانسان والعدل الاجتماعى .

أدباء ومواقف إنسانية

من الظواهر التى تدعو الى التفكير فى حياة الأدباء الذين اهتموا بمصير الانسانية والمجتمع أن كثيرا من هؤلاء الأدباء لم يكتفوا بكتابة القصة أو القصيدة أو المسرحية ، بل فكروا فى شىء آخر مادى وملموس يقدمونه الى الحياة ، وبعض هؤلاء الأدباء لا يستطيع أن يخرج بفكرته الى الواقع العملى ، فيظل يحلم بها ويتمناها ، وبعضهم على العكس يستطيع أن يخرج بفكرته الى الحياة الواقعية ، وعندئذ فانه يقبل على العمل بحماسة وانفعال غريب •

فما هو سر هذا الموقف ؟

ما هو سر الاهتمام بشىء آخر غير الأدب ؟ •••• ان السبب العميق الكامن وراء هذا الموقف هو رغبة هذا النوع من الأدباء فى أن يقدموا الى الحياة شيئا غير مشكوك فى فائدته • لقد بلغ الامر بأحد هؤلاء الأدباء يوما بأن صرخ : ان الاحذية أفضل من شكسبير • وكانت هذه الصرخة هى النتيجة المباشرة للأزمة الروحية العميقة التى تعرض لها هذا الأديب • لقد نظر فجأة الى أدبه على أنه شىء لاجدوى منه ولا أهمية له • بل نظر الى أدب العالم كله على أنه شىء لا يخفف عذاب الانسان ولا يساعده مساعدة ملموسة على احتمال محنة الحياة فى العالم •

هذه الأزمة الروحية نفسها هى التى يتعرض لها كل أديب ثورى عظيم ، وخاصة فى المجتمعات المتخلفة • انه يقف فجأة أمام أعماله الأدبية• وهو يسأل نفسه وضميره يهتز :

ــ ما فائدة هذه الأعمال التى أكتبها ؟ ماذا تفيد قصيدة رائعة

لشعب أمي عاجز عن القراءة ، أو شعب يفتك به المرض أو تفك به تلك المأساة الاقتصادية التى نسميها الفقر ؟ هل يكون ضميرى مطمئنا وأنا أعيش مثل هذه الحياة ولا أقدم للناس سوى كتابات ولا شيء غير كتابات ... ؟

ان أمثال هؤلاء الأدباء لايريدون فقط أن يفعلوا شيئا من أجل المستقبل ولكنهم يفكرون فى الحاضر أيضا ، ولا تستطيع أرواحهم أن تحمل أبدا مثل هذه الفكرة التى تقول : لايهم اذا قضينا على جيل أو جيلين ما دام ذلك من أجل المستقبل ...

ان هؤلاء الأدباء ربما يشعرون بعذاب الانسان فى الحاضر أكثر مما يشعرون بآلام المستقبل ...

وهذا هو مايدفعهم الى أن يفكروا فى عمل شيء آخر غير الادب ... شيء يتصل بالواقع الحى !

ومن هؤلاء الادباء العظماء « طاغور » .. انه لم يكتف بالاتصال بالفلاحين فى منطقة البنغال التى ولد ونشأ فيها ، ولميكتف بدراسة الأدب الشعبى البنغالى وحفظه واستيعابه بل قرر أن تكون صلته بالشعب وبواقع بلاده أعمق وأبعد تأثيرا من ذلك .

وأدرك طاغور أن خير ما يقدمه لشعبه غير أدبه وفنه ، هو أن يخرج نظريته فى التربية من المجال النظرى الى المجال العملى .. خاصة أنه يستطيع أن يخطو هذه الخطوة بسبب ثرائه وقدرته المادية الواسعة .

وكان طاغور ثائرا أشد الثورة على نظام التعليم التقليدى المعروف . كان يرى أن المدارس التقليدية تقتل روح الشعب لأنها تقتل أبناء الشعب ... انها « تجفف » الحقائق وتفقدها طعمها « الطازج » .. وبدلا من أن تجعل الطلاب على صلة مباشرة بالطبيعة فانها تقدم لهم معلومات جغرافية جافة ليس فيها نبض ولا روح ،

وبدلا من أن تقدم لهم الحياة المليئة بالملاحم والقصص الحية ، فانها تقدم لهم الحقائق التاريخية (الفاترة) وهكذا ...

ولن يرتفع الطالب الى مستوى الانسان الممتاز الذى يفيد شعبه وحضارته ولن يرتفع الطالب الى مستوى الاستيعاب العميق للتجربة الروحية فى هذا العالم دون أن تعود صلته المباشرة بالطبيعة والحياة وبأعلى درجة ممكنة .

ونظرة (طاغور) هذه هى ما يطلق عليه علماء التربية الغربيون اسم « التعليم عن طريق الخبرة المباشرة » .

ورفض طاغور أن يجعل نظريته هذه حبرا على ورق . فقد كان يؤمن أن هذا النوع من التربية سوف يقلب تربة الهند ويهز شعبها ويفتح أمامه أبوابا واسعة للمشاركة فى الحضارة . واستفاد طاغور من ثرائه ، فأنشأ مدرسة فى منطقة «شانتينيكان» أو «مرفأ السلام» سنة ١٩٠١ . وبدأت هذه المدرسة بثلاثة تلاميذ ، ولكنها ظلت تتطور وتتطور ، وأقبل عليها بعد ذلك مئات الطلاب ، وقد ظل طاغور بنفسه يرعى هذه المدرسة حتى مات سنة ١٩٤١ .

يقول طاغور عن انشاء هذه المدرسة « لم يكن أحد يتوقع منى مثل هذا العمل فقد أمضيت معظم حياتى حتى ذلك الحين - ١٩٠١ - فى الكتابة وخصوصا كتابة الأشعار ولذلك ظن الناس أن أمر المدرسة لايعدو أن يكون بدعة من بدع الغرور ، وآية من آيات عدم الخبرة » .

ولكن هذه المدرسة التى أنشأها طاغور من ماله الخاص ، سرعان ما أصبحت نبعا للحيوية ، ومركزا تتدفق منه قوة الروح والعقل فى الهند . وقد تحولت اليوم الى جامعة معروفة من أكبر جامعات آسيا .

وفى هذه المدرسة العجيبة كان الجرس الذى يدق لايقاظ التلاميذ أو لبدء اليوم الدراسى يردد نغمات موسيقية ، وليس صوتا

عنيفا مثل أصوات الأجراس التى نعرفها • وكان الطلبة يتلقون دروسهم لا فى حجرات مغلقة ، ولكن فى الهواء الطلق فوق الأعشاب وتحت ظلال الاشجار ، فقد أقيمت هذه المدرسة فى منطقة مليئة بالأشجار وبمناظر الطبيعة الساحرة وكانت الموسيقى والأغانى تملأ حياة الطلبة أثناء الدراسة والاستذكار والطعام ثم قبل النوم • وفى المساء كان الطلبة الصغار يقومون بنشاط فنى مختلف متنوع من رسم أو تمثيل أو غناء • أما الطلبة الكبار فكانوا يذهبون الى المناطق الزراعية المجاورة لتعليم الفلاحين •• وهذا هو واجبهم المسائى فى المدرسة •

وهكذا استطاع طاغور أن يقيم مدرسة رائعة استأثرت باهتمامه الخاص وبجزء كبير من مجهوده خلال أربعين سنة من حياته • وقد استطاعت هذه المدرسة أن تخلق « مواطنا » من نوع جديد بعد أن أعادت الطلاب الى أحضان الطبيعة وأثارت فيهم أروع ماهو كامن من أحاسيس عميقة نحو الطبيعة ، ونحو الانسانية ، فكيف يمكن بعد ذلك أن تتصور الذين يتخرجون فى هذه المدرسة الا عناصر انسانية راقية ؟ •••

وتترك طاغور فى تجربته التربوية الرائعة لنعيش مع فنان عظيم آخر هو « تشيكوف » •• ان تشيكوف لم يكتف بأن يكتب ، ولم يقتنع بأن يصرف حياته كلها فى الكتابة • بل كان دائما يراوده الحنين الى عمل شيء آخر غير الأدب • وكان أحيانا يجد هذا الشيء فى الطب حيث يذهب الى القرى ويشترك اشتراكا ايجابيا فى معالجة الفلاحين •• وفى الاحتفال بالذكرى الاربعين لوفاة تشيكوف وقف فلاح عجوز من الذين عاصروا تشيكوف يقول :

« اننى أعتبر نفسى أنا وزملائى من أبناء قرية مكلوفو مسئولين عن مرض تشيكوف وموته المبكر ، ذلك أننا طالما أزعجناه بشئوننا ومطالبنا وأمراضنا وبجميع التفاصيل المرهقة فى حياة القرية • »

ولكن تشيكوف كان قد بلور فى ذهنه فكرة أخرى غير الاهتمام

بالعلاج تكاد تكون هم أفكاره خارج النطـاق الأدبى . تلك فكرته عن المدرسين .. فقد كان مؤمنا بأهمية المدرسـين وقيمتهـم وضرورة رعايتهم ماديا ومعنويا الى أبعـد حد ... كان يؤمن بالمدرس ويرى فيه شعاع الضـوء الذى يبدد الظلام فى حيـاة بلاده ... ولـكن تشيكوف لم يكن يملك ثروة مثـل ثروة طاغـور .. ولذلك ظلت أفكاره عن المدرسين مجرد أحلام يفضى بها الى أصدقائه فى أحاديثـه الخاصة ولكنها تدلنا فى النهاية على ما فى قلب هذا الفنان من الاهتمام الكامل العميق بالمدرس ، وايمانه بدوره فى خلق حضـارة انسـانية عميقة .. قال تشيكوف لأحد أصدقائه ...

« لو أننى أملك مالا كثـيرا كنت بنيت مصـحة لمعلمى القرية المرضى : بناء مليئا بالنـور مضيئا جـدا بشبابيك كبيرة ، وأسقف عالية . وكنت أقيم مكتبة فخمة ، وأجمع كل أنواع الآلات الموسيقية ، وأبنى خلية نحل ، وأزرع بستان خضروات ، كنت أنظم محـاضرات عن الهندسة الزراعية ، وعلم الظـواهر الجوية ... وهكذا فالمعلمون ينبغى لهم أن يعرفوا كل شىء ... كل شىء ... »

ثم قال لصديقه :

« هل يعتريك الملل من اصغائك لأحلامى ؟ أنا أحب الـكلام فى هذا الموضوع لو أنك تعـرف فقط حاجتنا المـاسة لمعلمين طيبين ، أذكياء متعلمين ، فى بلادنا لا بد من أن نخلق ظروفا استثنائية للمعلمين، وفى أقصر وقت ممكن مادمنا ندرك أنه مالم يحظ الناس بتعليم شامل ستنهـار الدولة ، كما ينهار منزل مبنى بطـوب لم يحترق بما فيه الكفاية ، ولا بد للمعلم من أن يكون ممثلا فنانا ، وأن يحب عمـله بحرارة . ومعلمونا عمال حفر أنصاف متعلمين ، يرحلون الى القرية ويعلمون الأطفال فى غير اقبال وكأنهم واحلـون الى المنفى . انهـم متضورون جوعا وتدوسهم الأقدام .

يجب أن يكون المعلم هو الرجل الأول فى القـرية ، وقادرا على

الاجابة عن جميع الأسئلة التى يوجهها اليه الفلاحون ، وينبغى أن يكون أهلا للاحترام فلا يجرؤ أى كائن على أن يصيح فى وجهه ليحطم كبرياءه ، كما يفعل كل شخص فى ريفنا : شرطى القرية ، وصاحب الدكان الثرى ، والقسيس وناظر المدرسة وذلك الموظف الذى يسمونه مفتش المدرسة • ومن الحمق أن ندفع راتبا شحيحا زهيدا لرجل تقع عليه تبعة تعليم الناس •• تعليم الناس : تصور !! »

بهذه الروح كان تشيكوف يتكلم عن المدرسين • ذلك لأنه كان يدرك بغريزته النبيلة الواعية تلك الهوة السحيقة بين ما يكتبه هو وأمثاله من كبار الأدباء وبين الواقع فى بلاده ، ذلك الواقع الذى تسحقه حقيقة مؤلمة • فالأمية هى الملكة المتوجة على عرش القرية أى أن ما يكتبه الأدباء مهما كانت قيمته لا تقرؤه العيون المعذبة للفلاحين المرهقين الضائعين • فأية مأساة أعنف من هذا ؟ وما أسخف ما يبدو الأدب فى مثل هذا العالم ، فالكلمات الجميلة مهما كانت قيمتها بينها وبين الشعب سور عظيم من الجهل والمرض والتعاسة •

وهكذا شغلت هذه الفكرة نفس تشيكوف ، بل هزته وأثارته، ولم يكن يملك ثروة يقيم بها شيئا عمليا ملموسا • لم يكن يملك سوى أن يحلم ويتمنى ويتابع أخبار المدرسين ويسهم بمقدرته المالية المحدودة فى انشاء المدارس •• وهو أخيرا لا يمل الافضاء بأحلامه وأمانيه الى أصدقائه أو هو يفضى بها الى الذين يقرأون ما يكتب فيكتب عن المدرسين وحياتهم فى قصصه • وما أكثر ما كتب عنهم ••

ومن هذا النوع أيضا كانت حياة الروائى العظيم تولستوى •

كان تولستوى يحمل الفأس ويعمل مع الفلاحين •

وكان يضع فى درج مكتبه حذاءه الخاص يصلحه بيديه ويجد سعادة كبرى فى ممارسة هذا العمل •

وتوج هذه الأعمال كلها بمحاولة التنازل عن ممتلكاته للفلاحين

ولكن زوجته حالت بينه • بين الاستمرار فى هذا التصرف ، فلم يستطع أن ينفذ خطته فى التنازل المطلق عن املاكه •

ولم يكن تولستوى حتى سن الستين أكثر من « كونت » غنى من كبار أغنياء روسيا • كما كان فى نفس الوقت أديبا مشهورا فى العالم كله وكان يكسب الذهب من وراء أدبه •

وفى الستين اعترته أزمة روحية عنيفة •• وبدأ يشك فى قيمة الفن وجدواه ، وبدأ يحن حنينا كبيرا الى عمل أشياء أخرى غير الكتابة • أشياء يكون لها أثر مباشر فى الحياة • وأخذ يرى أنه آن للانسانية أن تمجد العمل اليدوى ، وتعرف قيمته ، فقد عاش المجتمع الانسانى قرونا طويلة يحتقر العمل اليدوى ويرفع العمل الفكرى عليه عشرات المرات ، وكان الذين يقومون بالعمل اليدوى هم رقيق العالم القديم ، ورقيق العالم الحديث أى الفلاحون والعمال •

أما السادة والمتعطلون والذين يعيشون فى فراغ فهم وحدهم الذين يستمتعون بالعمل الفكرى ، ويستمتعو ن بكل ميزاته الاجتماعية •

يقول تولستوى ، وكان ذلك فى أواخر القرن الماضى :

« وان العيب الرئيسى فى مجتمعنا أنه كان ولا يزال مجتمعا يحتقر العمل اليدوى ولقد استفاد المجتمع بهذه الوسيلة من عمل الطبقات الفقيرة البائسة التى أصبحت مكونة من عبيد كعبيد العالم القديم لكن دون أن يرد لهم الجميل » •

ثم يصرح « اننى لا أعترف أبدا بصدق العقائد الدينية أو الفلسفية أو الانسانية عند شخص يكلف خادمه القيام بأعمال مخزية » •

وهكذا ينادى هذا الفنان الكبير بالعودة الى العمل اليدوى واحترامه ويبلغ به الامر أن يرى اى عمل يدوى أكثر فائدة وأهمية

بالنسبة للانسانية من مسرحيات شكسبير وموسيقى بيتهوفن وأصدر ولستوى كتابا عنوانه « ما العمل ؟ » يهاجم فيه ـ على هذا الأساس ـ شكسبير وبيتهوفن أعنف الهجوم .

وهكذا يبلغ الحنين بالفنان الكبير الى خدمة الحياة خدمة مباشرة للتخفيف من عذابها ومشاكلها المختلفة .

وبعد .. فان الحكمة الكبرى وراء هذه المواقف كلها هى أن هؤلاء الأدباء العظماء كانت تشغلهم فكرة تغيير الحياة والمساهمة الفعالة فى القضاء على العذاب البشرى فى أية صورة من صوره وبمقياس هذه الفكرة النبيلة المخلصة كان هؤلاء الأدباء يشكون فى قيمة أدبهم وفائدته أمام مشكلات الانسان الكبرى ، ولا يجدون راحة لضميرهم الا بالارتباط الفعلى بهذه الأعمال الأخرى .. خارج الأدب ، وفى قلب المشكلات الفعلية للناس ... مهما كانت هذه الاعمال بسيطة النفع محدودة التأثير .

ولو نظرنا الى أدبائنا على ضوء هذه المواقف ، لما وجدنا لدى معظمهم أى اتجاه من هذا النوع ، باستثناء القليل منهم مثل طه حسين الذى اهتم اهتماما كبيرا بمشكلات التعليم ، ومثل سلامة موسى الذى شغل عمره بالدعوات الايجابية مثل انشاء المصانع وغير ذلك من القضايا الاشتراكية الحقيقية .

ولعل هذه المواقف تفتح أمام أدبائنا الشبان طريقا أكثر عمقا وتواضعا ، وأكثر انسانية من أى موقف آخر فنحن لسنا بحاجة الى الأدباء الذين « يتفرجون » على الحياة أو الذين يتعالون على مشكلاتها وآلامها وعذاب الناس فيها . بل نحن بحاجة الى أدباء يساهمون فى بناء العالم وتخفيف عذاب الانسان .

انسانية الأدب الاشتراكي

منذ سنوات قرأت قصة بعنوان « قارىء » لماكسيم جوركى وقد ظلت هذه القصة حية نابضة فى قلبى منذ قرأتها الى اليوم ، ذلك لانهـــا تعالج موضوعا هاما هو « هدف الأدب » بطريقة ناضجة تعكس المعنى الصحيح العميق للأدب الاشتراكى .. وبطل القصة « كاتب » وجد نفسه فجأة أمام شخص غريب يناقشه . ويسأله عن هدفه من الكتابة وعن موقفـــه من الحياة . وبشىء من التفكير ندرك أن هذا الشخص الغريب ليس الا ضمير الكاتب الذى يحاسبه حسابا دقيقا عسيرا .

وتبدأ القصة بهذه السطور على لسان الكاتب بطل القصة :

« كنا فى الهزيع الأخير من الليل عنـدما غادرت ذلك المنزل حيث قرأت من فورى على جماعة من أصدقائى احدى قصصى التى أتيح لها أن تنشر على الناس .. وقد أسرف هؤلاء الاصدقاء فى الثناء على ، فكنت أسعى متباطئا فى طريقى تغمرنى حالة لذيذة من الانفعال وأشعر باحساس من المتعة بالحياة لم أشعر به من قبل .

وحدثت نفسى قائلا : ماأجمل أن يكون الانسان شيئا مذكورا على هذه الارض وبين هؤلاء الناس ، ولم يفتقر خيالى الى الالوان الزاهية ، وهو يرسم صورة ـ لمستقبلى »

هذه هى الصورة « الناعمة » التى رسمها الكاتب لنفسه من خلال مشاعره الذاتية وأحلامه ، ولم يكد يصل الى هذه النقطة حتى ظهر أمامه ذلك الشخص الغريب ليحطم له هذه الصورة وينبهه الى معان أخـــرى مختلفة .

وكل ما قاله الشخص الغريب ليس الا تحديدا لوظيفة الادب فى

مجتمع يحترم الأدب ، وعند أديب يريد أن يلعب دوره فى هذه المجتمع •
لقد بدأ الشخص الغريب فى الحديث عن « غاية الأدب » فى كلمات حارة صادقة :

ـ اننى أدرك انك تجد من العسير عليك أن تحـــدد غاية الادب فدعنى أنا ـ ان كنت أستطيع ذلك ـ أننى أعتقد أن غاية الأدب هى أنه يساعد الانسان على معرفة نفسه ودعم اعتقاده فى ذاته ومؤازرته فى كفاحه سعيا وراء الحقيقة واكتشاف الخير فى الناس واجتثاث ماهو فاسد فيهم ، واشعال الخجل والغضب والخسارة فى قلوبهم ومساعدتهم على اكتساب قوة يستخدمونها من أجل الغايات السامية ، ـ وتقديس حياتهم بما فى الجمال من روح مقدسة ، هذا هو تعريفى ••• ومن الواضح أنه تعريف تخطيطى ناقص ونستطيع أن نضيف اليه كل ما يمكن استخدامه لتهذيب الحياة • »

وبعد هذا التحديد العميق لوظيفة الادب الانسانية يهـــاجم هـــذا الشخص الغريب الادباء الذين يكتبون عن الحياة دون معرفة عميقة بها ، ويقفون عند حدود الشعارات الخارجية العامة دون أن يكون لهم رصيد من التجربة الانسانية والتجربة الثقافية الكبيرة معا ، فاذا كانت وظيفـــة الأدب الحقيقة هى أن يساعد الناس على أن يعيشوا بصدق وعمق •• هى أن يهدئ الانسان الى طريق صحيح فى الحياة ••• اذا كانت هذه هى وظيفة الأديب فلابد أن يكون الأديب نفسه على درجة كبيرة من القـــوة المعنوية والعمق •

وهذا هو ما يقصده الشخص الغريب فى القصة « عندما أخذ يصفر لحنا شائعا ، وكان لحنا حزينا لأغنية مسلية من رجل ضرير أخذ على عاتقه ارشاد العميان من أمثاله • أما كلمات الأغنية فتقول :

كيف يمكنك أن تهدى الى الطريق اذا كنت أنت نفسك قدضللته••

ان مساعدة الآخرين للوصول الى « الخلاص » ••• إنمـــــا تبدأ

بالخلاص الذاتى •• حتى لايكون الأديب مثل الأعمى الذى تتحدث عنه الأغنية والذى يحاول أن يهدى العميان الى طريق لايعرفه هو نفسه •

وبعد ذلك يهاجم « الشخص الغريب » بطل القصة هجوما عنيفا ، هو فى الواقع ثورة ومطالبة بالاندفاع الروحى الى ابعد مدى فى سبيل خلق أدب له تأثير حقيقى على الحياة الانسانية ••• يقول ذلك الشخص الغريب بقوته واندفاعه موجها حديثه الى بطل القصة :

ان ما تكتبه عن الحب يبدو زائفا ومنافقا وكأنما حملت على هذه الاقوال حملا ، فأنت أشبه بالقمر الذى يعكس الضوء • وهذا الضوء كئيب معتم ، انه يلقى ظلالا كثيرة وضوءا قليلا ، ليس فيه شىء من الدفء على الاطلاق •• وأنت نفسك على درجة من الفقر لا تستطيع معها أن تمنح الآخرين شيئا ذا قيمة حقيقية ، واذا منحت فلست ترمى الى ذلك الشعور بذلك الرضى الاسمى بأنك أغنيت الحياة وأضفت اليها افكارا وعبارات جميلة ••• انك تعطى لكى يكون لك الحق فى أن تاخذ من الناس ومن الحياة •• أنت أفقر من أن تهب الهدايا •• أنت مراب تعطى الناس كسرا من خبرتك فى نظير الفائدة التى تدفع لك على هيئة شهرة » •

« ان مؤلفاتك لاتعلم القارىء شيئا ولا تجعل القارىء يخجل من شىء سواك ، وكل مافيها مبتذل : شخصيات مبتذلة •• وأفكار مبتذلة وحوادث مألوفة •• فمتى يبدأ الناس فى الحديث عن ثورة الروح ، وعن الحاجه إلى البحث الروحى وأين هذه الدعوة إلى الحياة الخلاقة ؟ وأين هى دروس الجسارة التى تهب ألفاظ التشجيع أجنحة تحلق بها الروح ؟ »

هذه هى الحدود الانسانيه للأدب كما ترسمها القصة ، وهى نفسها الحدود التى يفكر فيها كل أديب مخلص فى بلادنا اليوم ، فنحن بحاجه الى تلك الثورة الكبيرة التى تملأ النفوس وتدفع الناس الى حماية المبادىء الجديدة والحياة الجديدة •

وأول مايحتاج اليه أدبنا لكى ينجح فى تجربته الجديدة هو العمق. ان الفرق بين الدعاية لقضية من القضايا والدعوة الى هذه القضية فرق

كبير ، خاصة فى ميدان الأدب ، وأدب المستقبل ، الأدب الذى سوف يعيش ويؤثر فى حياتنا وهو أدب « الدعوة » الذى ينبع من معرفة عميقة لما يحتاج اليه التطور فى بلادنا من مبادىء انسانية ، وليس أدب الا عاية الذى لن يترك سوى تأثير سطحى عاجل لاقيمة له ..

ان من واجبنا أن نستبعد أدب الدعاية تمام الاستبعاد ، لكى يحل مجله أدب آخر عميق له قوته وتأثيره ، ولن يتوافر ذلك الا عن طريق الثقافة العميقة التى تكون اساسا لحياة الأديب ، بل وأساسا لحياة الشعب أيضا .

أما الأدب السطحى الذى يصدر عن ذهن فقير ووجدان فقير فهولن يفيد ثورتنا الشاملة بحال من الأحوال ، بل سيكون عائقا ينبغى أن نتغلب عليه منذ البداية .

والشيء الآخر الذى يحتاج اليه أدبنا فى هذه المرحلة بل وفى المستقبل أيضا هو تنمية التقليد الأدبى الذى ورثناه من أدبائنا الكبار ذلك التقليد هو الصلة بالشعب . ان أدباءنا الكبار لم يكتبوا كل أعمالهم بوحى من هذه الصلة ، بل كتبوا بوحى منها بعض أعمالهم فقط ، ولكن نظرة دقيقة الى هذا الانتاج الذى كتبه أدباؤنا بوحى من تجربتهم الحية مع الشعب تثبت أن هذا الانتاج هو أحسن ماكتبه أدباؤنا وأكثره حرارة وقوة . « فعودة الروح » و « يوميات نائب فى الارياف » كتبهما توفيق الحكيم عن تجربة مباشرة طويلة فى الريف وفى البيئات الشعبية بالمدينة ، ومعظم الأدباء يتفقون على أن هذين العملين هما أحسن ماكتبه توفيق الحكيم واكثره عمقا وبقاء . كذلك كتب يحيى حقى أحسن أعماله عن « السيدة زينب » وعن « الصعيد » ... فقصته الناضجة « قنديل أم هاشم » تدور فى السيدة ، وقصته ـ الأخرى التى تعتبر من أجمل انتاجنا الأدبى الحديث وهى « دماء وطين » قد كتبت عن الصعيد ، وكذلك نستطيع أن أن نذكر معظم روايات نجيب محفوظ التى استمدت حرارتها وحيوتها من صلة نجيب محفوظ القوية بالبيئات الشعبية فى القاهرة كذلك كانت

قصص محمود البدوى فى مجموعته الناجحة « ذئاب جائعة » التى استمدت حيوتها من تجربة الكاتب المباشرة فى الصعيد .

لقد عاش كل كاتب من هؤلاء الكتاب فترة من حياته مع الفلاحين او فى قلب البيئات الشعبية فى المدن ، وكانت هذه الفترة دائما هى مصدر من مصادر الخصب والقوة فى انتاجهم الأدبى .

ولكننا الآن بحاجة الى مزيد من الوعى بهذا الاتجاه فى انتاجنا الأدبى الجديد .. ان الثقافة العميقة وحدها لاتكفى ... والصلة بالشعب وحدها لاتكفى ، بل يجب أن يحمل الأديب ثقافته ويحاول أن يعيش تجارب عميقة واسعة فى الحياة الجديدة التى يقبل عليها شعبنا فى هذه المرحلة ولابد أن يحدد لنفسه هدفا انسانيا أصيلا .

وقد يتساءل البعض : كيف يمكن أن يتم هذا ؟

ان تاريخ الأدب يقدم لنا نماذج عدة نستطيع ان نذكر منها تلك الرحلة الطويلة التى قام بها الاديب العالمى تشيكوف الى احدى جزر « روسيا » الموحشة وهى جزيرة « سخالين » وكانت هذه الجزيرة ممتلئة بعدد كبير من المواطنين ــ الفقراء المرضى ، وكانت الحياة فى هذه الجزيرة مريرة حتى لقد كانت تسمى « جزيرة الرعب » ... ولقد ذهب تشيكوف اليها مع ذلك .. وكان فى قمة مجده وشهرته مما أثار دهشة الكثيرين فى عصره حول مغزى هذه الرحلة وهدفها .

وأخذ تشيكوف يدرس أحوال السكان فى هذه الجزيرة دراسة علمية دقيقة ، الى أبعد حد ، كان يجمع الاحصائيات ويدرس الأمراض ويحاول أن يعالج بعض المرضى بقدر ما يستطيع .. ثم عاد ومعه بحث دقيق عن هذه الجزيرة . ولم يكن هذا البحث فيما يرى النقاد هو النتيجة الفنية للرحلة ، ولكن الرحلة تركت أثرها فى أدب تشيكوف ، وفى تصوره لمشكلات الشعب وأحلامه « فكان بعد ذلك صادق التصوير لهذه المشكلات والاحلام ولا ينساق مع الوهم ولا مع التجارب المنقولة اليه وساطة من الوسائط الخارجية . »

ان الأديب العربى فى المرحلة الجديدة يحمل مسئوليات كبيرة ، ومما لاشك فيه أن الدفعة الاشتراكية الثورية الجديدة ستجعل جماهير الأدب أكبر وأوسع •• ومن هنا يجب أن يكون الأديب العربى على استعداد لأداء دوره فى دعم المبادىء الجديدة دعما صحيحا صادقا •

وقد يكون هناك سؤال آخر : هل يمكن أن يصبح الأدب والثقافة عموما غذاء لجماهير شعبنا الكبيرة •• للفلاحين مثلا ؟

فى اعتقادى ان التنظيمات الجديدة للاتحاد الاشتراكى سوف تجعل من الفلاحين قوة فكرية محبة للثقافة بشكل رائع •

ان الفلاح فى قرانا من أكثر النماذج الانسانية تطلعا الى المعرفة •• قد يكون الفلاح أميا لايقرأ ولا يكتب ، ولكنه مع ذلك يظل متطلعا بأذنيه وعينيه وقلبه الى أية فكرة جديدة أو حقيقة تضاف الى عقله ••• وليس فى قرانا أكثر قداسة من لقمة الخبز والورقة المطبوعة •• حتى الأوراق الصفراء القديمة لها فى قلوب الفلاحين معنى القداسة •• انهم يشعرون بالحبو الرهبة والتطلع أمام الورقة المطبوعة •••

والطالب الصغير يجد لنفسه مكانا كبيرا فى القرية بين من هم فى سن آبائه وأجداده ، ذلك لانه يحمل صفة جديدة هى صفة العلم •• وكثيرا مايلتف الفلاحون حول هؤلاء الطلاب الصغار يسألونهم ويحاولون أن يفهموا عن طريقهم كل شىء •

ومن الممكن أن يكون الفلاح مدركا بذكائه الفطرى أن العلم هو طريق النجاح فى الحياة ولذلك فهو يحترمه ويهابه • ولكن هذا المعنى لاينفى أبدا أن احترام العلم والتطلع اليه قد أصبحا جزءا من طبيعة الفلاح فى بلادنا •

والمعنى الجديد للاتحاد الاشتراكى سوف يوفر فى كل قرية فرصة صادقة لحلم الفلاح القديم ••• أن يعرف مايدور حوله ، أن يفهم دوره فى المجتمع ، أن يتعلم ويقرأ •• فهذا هو الطريق الوحيد لكى يناقش الفلاح مشكلاته ، ويقدم بجرأة اقتراحاته وآراءه •

قال لى صديق عائد من غينيا : ان الحزب الديموقراطى الغينى الذى كونه سيكوتورى قد امتد الى كل قرية ، وان ثقافة الفلاحين تتسع وتتعمق بتوجيه من الحزب .. ان الفلاحين يجتمعون على الجسور وتحت الاشجار فى مجموعات صغيرة ليناقشوا كل شيء ، انهم يناقشون المشكلات السياسية مثل مؤتمر بلغراد ودوره ــ وأهميته ، ويناقشون المشكلات المحلية للقرية مثل بناء جامع أو بناء مستشفى أو كنس الشوارع أو معالجة مرض طارىء حل بالانتاج الزراعى ...

وهم يتبادلون المعلومات الثقافية بقدر مايستطيعون ، وبحسب نظام ييسر لهم ذلك .

وكنت أسمع هذا الكلام وأتصور كل قرية فى الجمهورية العربية وقد أتيحت لها هذه الفرصة ، فتتكشف المواهب العميقة للفلاحين ويتاح لهذه المواهب أن تعمل وتتألق فى القرية . فيعيش الفلاحون حياة معنوية راقية تجعلهم يتحملون أية تضحية ولكن برضاء عميق ناتج عن الوعى والمعرفة ومن شعورهم الكبير بأنهم يبنون وطنهم وبأنهم هم جيش الثورة وقوة الثورة .

ومن خلال هذه التجربة الجديدة المتطورة سوف يصبحون فى فترة غير طويلة قوة استهلاك ثقافى كبيرة .. » وهذا نفسه ما سوف يحدث للفئات الشعبية الأخرى فى المجتمع .

وهنا يكون الاعتبار الصحيح للأدب ويكون التمييز بين أدب قادر على البقاء والتأثير وبين ذلك الادب الفقير الخالى من العمق والصلة بالشعب . والهدف الانسانى الكبير ..

الرغيف والكتاب
أثمن أسس مال في المجتمع الاشتراكي

القوى التي تجمعت وتآزرت وأصبحنا نسميها في العصر الحديث باسم « الرجعية »، هذه القوى التي تجمع بين الانظمة الملكية المستبدة وبين الاقطاع والرأسمالية لم تقف في طريق حصول الانسان على طعامه وطعام أسرته فحسب ، بل وقفت أيضا بنفس القوة والعنف والوحشية في طريق حصول الانسان على المعرفة ، لقد احتكرت هذه القوى خلال فترات التاريخ المختلفة حق الرفاهية والراحة ، واحتكرت أيضا حق المعرفة والاستمتاع بالفن والثقافة .

وكان الخوف من انتشار الوعي باعثا للرجعية على محاربة التعليم على أوسع نطاق ، ثم محاربة الثقافة بعد ذلك محاربة لاهوادة فيها ولا رحمة . فالارستقراطية الانجليزية قد ذبحت الفيلسوف توماس موروفي « برج لندن » عندما رفض أن ينحني أمام استبدادها ، ورفض أن يعلن الولاء للملك هنري الثامن ممثل الارستقراطية الانجليزية والجالس على قمة انحرافها وفسادها وانحلالها .

وعندما بدأت الرجعية الأوربية تختفي وراء الكنيسة وتتركز حولها بعد اختراع المطبعة وانتشار الكتب المطبوعة ، أخذت الكنيسة تحارب انتشار الكتب . وتصدر قوائم بتحريم كثير من الكتب التي تدعو الى الغاء الامتيازات بين الناس ونشر المساواة في المجتمع وكانت الكنيسة تحدد في « قوائمها » عشرات الكتب ثم تقول : ان ــ « المؤمنين » يجب ألا يقرءوا هذه الكتب والا أصبحوا عصاة ومخطئين وخارجين عن « طاعة الله » .

واندفعت الرجعية الى مدى أبعد في محاربة الفكر وتحريم انتشار الثقافة فكانت الكنيسة تحرق الكتب التي تخشاها الرجعية وتخاف منها ،

كما كانت تحرق المفكرين الذين يحرضون الناس على المطالبة بحقوقهم ، وتدعوهم الى الاستقلال فى التفكير ، وكل كتب التاريخ تذكر على سبيل المثال أن الرجعية الأوربية قد ضاقت بالمفكر الايطالى الحر « برونو » فحكمت عليه بالموت وأحرقته سنة ١٦٠٠ • وقبل أن يلقوا به فى النار قال لقضاته : وكأنه يوجه كلامه لكل اعداء الفكر فى التاريخ : « لعلكم أيها القضاة وأنتم تنطقون بهذا الحكم تحسون الفزع والرعب أكثر مما أحس أنا عند سماعى له • »

وعندما تقدمت الرجعية واشتد الضغط عليها وأصبحنا فى عصر من المستحيل فيه منع الافكار باحراق الكتب أو باحراق المفكرين ، أصبح الحل هو خلق كتب مليئة بالمعلومات الزائفة التى يقصد بها التأثير على القارىء • فقد اتضح أن دوائر المعارف الاساسية التى تصدر فى بريطانيا تهتم أكثر ما تهتم بالألعاب الرياضية ، وبتاريخ الارستقراطية البريطانية •• فهى تكتب عن الاسر البريطانية الكبيرة • وتمجد هذه الاسر وتخلق منها أسطورة سحرية جميلة • فالمغامر القرصان تقدمه على أنه فارس ومحارب شجاع • والتاجر اللص تقدمه على أنه عصامى بنى نفسه بالاجتهاد وقوة الشخصية •• وهكذا ••• ولم تقتصر المعاجم ودوائر المعارف البريطانية على هذه الجوانب ، بل أخذت تفسر الحركات الاستعمارية وتعطيها وجها علميا وحضاريا مقبولا •

والسيطرة على العقل عن طريق المعاجم ودوائر المعارف هو ماتحاول أن تفعله اليوم بعض الدول الاجنبية بالثقافة العربية • فهناك محاولات مستمرة لعمل معاجم ودوائر معارف عربية توجهها جهات أجنبية ، مثل دائرة معارف « كولومبيا » التى تريد احدى المؤسسات الامريكية أن تصدرها باللغة العربية تحت اشرافها وتوجيهها • كذلك فكر المسئولون عن المعجم الفرنسى الشهير « لاروس » بعد الحرب العالمية الثانية فى اصدار معجم عربى عصرى مستعينين فى ذلك بمعلمى اللغة العربية فى كلية اليسوعيين ببيروت •

ولكن لماذا تهتم المؤسسات الأجنبية بوضع المعاجم العربية الكبرى ؟

... ان المعاجم ودوائر المعارف هي البحيرات الاساسية التي تخرج منها الروافد المختلفة للفكر الانساني • انهم يستطيعون عن طريق هذه المعاجم أن يضيفوا ما يشاءون من معلومات عن الاشخاص والدول والحركات السياسية • ولن يكون كل هذا ظاهرا مكشوفا بل على العكس سيتسلل بين الصفحات ويأخذ ثوبا علميا يصعب كشفه وتمزيقه •

هذه صورة من الموقف الذى كانت الرجعية دائما تقفه بشتى الصور ضد انتشار الثقافة فالرجعية تعلم ان الرغيف هو نصف الطريق الى الكرامة الانسانية • وأن الكتاب هو النصف الثانى الذى يؤدى الى نهاية الطريق •• ومن المستحيل خداع انسان يأكل ويقرأ ... من المستحيل السيطرة عليه واستعباده •

ولذلك فان مهمة ثورتنا الاشتراكية أن تعمل بكل قوتها لنشر الثقافة بين صفوف الشعب على أوسع نطاق وأعمق نطاق •

وعندما نفكر فى نشر الثقافة بين جماهير الشعب فاننا نصطدم بالعدو الاول للثقافة وهو « الأمية » • والأمية عدو يجب ان نتخلص منه بصورة عاجلة ، ان فى شعبنا حتى الآن ما يقرب من ٧٠ ٪ من المواطنين الأميين ، وهذه نسبة عالية جدا فى شعب يريد أن يحقق ثورة عميقة شاملة • يجب أن نواجه هذه الظاهرة ونعمل بوسائل « ثورية » على علاجها •• قال لى صديق عائد من زيارة لكوبا : ان كاسترو قد أغلق الجامعات والمعاهد لمدة سنة بعد نجاح الثورة لكى يضع كل المثقفين فى حرب حاسمة ضد الأمية •• وليس من المهم أن ننفذ المشروع نفسه ، بل المهم هو تحقيق الهدف بأية وسيلة ولكن بأسرع وسيلة أيضا •

على أن محو الأمية لايزيد على أن يكون عملا يشبه زيادة الرقعة الصالحة للزراعة فالمهم بعد ذلك أن تستغل هذه الرقعة وتروى وتزرع بالفعل ، وهذا معناه أن محو الأمية يجب أن تتبعه عملية تثقيف شاملة واسعة للشعب •• فرفع وعى الشعب وثقافته معناه تحويله الى قوة فعالة لايستهان بها للثورة الاشتراكية • والثورات الكبرى تعتمد على هذا «الوعى

الشعبى ، وتخلقه أيضا • فقد كتب أحد المؤرخين يقول عن الأيام العشرة الاولى للثورة الفرنسية « لقد برز فجأة من بين المغمورين عشرات العباقرة القادرين على الخطابة والكتابة » ذلك لان الثورة جامعة كبيرة يتخرج فيها المواطنون ويتعلمون ويظهر من بينهم عناصر متفوقة قوية تؤثر فى الواقع •

والثورة الاشتراكية لها فروضها التى تشبه فروض الدين • فهناك موضوعات لابد ان يكون كل مواطن على قدر من الالمام بها ومعرفتها •• فى قرية وفى كل مصنع • وستكون هذه المعلومات هى الخطوة الاساسية فى رفع مستوى ثقافة الشعب كل الشعب ، ويجب البحث عن الوسائل المختلفة لجعل هذه المعلومات شيئا حيا لامجرد أفكار جامدة •

وسأشير هنا الى وسيلة هامة لجأت اليها جميع الثورات الكبرى لرفع ثقافة الشعب ، هذه الوسيلة هى « الكتب » المبسطة « • وهى كتب ينبغى أن توضع باشراف كبار المفكرين والمثقفين فى بلادنا • ويجب أيضا أن تنتشر هذه الكتب بأثمان رخيصة • بحيث يصبح الكتاب الى جانب الرغيف هما أرخص شىء وأثمن شىء فى حياتنا فى الوقت نفسه •

ومهمة التبسيط والكتب المبسطة التى يجب أن نستعد لاصدارها بما يتناسب مع ظروف الثقافة الشعبية لاتمنعنا من التفكير فى كتب موجودة بالفعل حققت هذا التبسيط فى محاولات جدية عميقة ، وباستطاعتنا بل ومن واجبنا أن نعمل على نشر هذه الكتب عن طريق لجان الاتحاد الاشتراكى ، وعن طريق وزارة الثقافة وعن أى طريق آخر • بحيث لاتمر فترة طويلة دون أن يكون كل مواطن فى بلادنا قد قرأ هذه الكتب وأدرك مضمونها الحقيقى ، وبحيث تهتم الاجيال الجديدة دائما بهذه الكتب وتقرؤها منذ البداية لانها ستفتح أمامها نافذة كبيرة على العالم الحديث وتخلق لديها احساسا صحيحا بالتقدم الانسانى ومعناه ووسائله •••• ومن يعمل من أجله ومن يعمل ضده •

وفى مقدمة هذه الكتب المبسطة العميقة كتاب ينبغى أن يقرأه كل مواطن فى بلادنا خلال بناء ثورتنا الاشتراكية • هذا الكتاب هو « تاريخ

العالم ، للزعيم الاشتراكى المثقف نهرو .. لقد استطاع نهرو فى هـــذا الكتاب الذى كتبه على صورة رسائل لابنته .. أن يقدم تاريخ الانسانيـــة فى أسلوب بسيط خال من التعقيد أما منهجه فى تفسير الحوادث فهو منهج اشتراكى واضح يرمى الى غاية واحدة وهدف واحد .. انه يريد أن يخلق فى القارىء احساسا عميقا بأن العلم يتقدم وأن القوى التى تمثل التقدم تنتصر دائما خلال معارك التاريخ المختلفة حتى ولو تأخر هـــذا النصر ، وأن الحياة تحقق دائما نماذج أفضل من المجتمعات والثقـــافات ومظاهر الحضارة ، ان كتاب نهرو يخلق لدى القارىء احساسا انسانيـــا بالتاريخ . ويفسر التاريخ بوضوح على أنه حركة دائمة وصراع مستمر بين الذين يريدون تقدم الانسان وتطوره وبين الذين يريدون تعطيلـــه وعرقلته ، ومثل هذه النظرة الى التاريخ تساعد الانسان على فهم مايجرى فى عصره من أحداث فهما سليما دقيقا .

ونظرة نهرو تختلف تماما عن نظرة أخرى تعتبر التـــاريخ مجرد حوادث منفصلة عن بعضها البعض ، ليس فيهـــا ذلك الصراع العنيف المتصل بين قوى ـ التقدم والقوى الرجعية .. ونظرة نهرو فى كتابه هى النظرة الاشتراكية الصحيحة التى تهدف الى السيطرة على احداث التاريخ وتوجيه هذه الاحداث لخدمة الانسان وتقدم الانسان .

أما الكتاب الثانى الذى ينبغى أن يقرأه ويفهمـــه كل مواطن فى بلادنا فهو كتاب برنارد شو « دليل المرأة الذكية » . فهذا الكتاب يشرح المبادىء ـ الاشتراكية بأسلوب بسيط سهل الى ابعد حد . ولكنه لايغفل شيئا من المبادىء النظرية الاساسية للاشتراكية ، وهذا الكتاب الى جانب كتاب نهرو يجب ألا يخلو منهما بيت من بيوتنا . والا يكون هناك فلاح أو عامل أو ضابط أو جندى أو طالب الا وقد قرأ هذين الكتابين قراءة جيدة سليمة ويجب أن تعمل أجهزة الثقافة فى الدولة على تيســـير شراء هذين الكتابين حتى يباعا بأرخص الاثمان ، وكم أتمنى أن تتبنى لجـــان الاتحاد الاشتراكى الدعوة الى قراءتهما ودراستهما دراسة عميقة .

وفى حياتنا الثقافية مفكرون استطاعوا أن يصلوا الى هذا الحد من

التبسيط العميق لموضوعات أخرى أساسية • ويجب الاستفادة من هؤلاء الكتاب الى أبعد حد • فان اتجاهم الفكرى ثروة ينبغى أن نستغلها ونستفيد منها بدلا من تركها للمصادفات العابرة •

وسأذكر من هؤلاء الكتاب كاتبين على صلة قوية باحتياجاتنا الثقافية الراهنة أما الكاتب الأول فهو سلامة موسى الذى استطاع أن يكتب بأسلوب على غاية من البساطة والتركيز والوضوح ، وأن يعرض ويفسر بهذا الأسلوب الواضح الصريح عددا من أهم قضايا الفكر الانسانى •

لسلامة موسى خمسة كتب على الأقل أعتقد أن من الضرورى أن تكون جزءا من ثقافة جميع المواطنين • فهذه الكتب الخمسة تعرض فى بساطة عميقة قضايا انسانية يجب أن تستقر فى ذهن كل مواطن فى مجتمعنا الاشتراكى • أما هذه الكتب فهى كتاب «الثورات» وهو يستعرض تاريخ الثورات الانسانية منذ فجر التاريخ حتى ثورة ١٩٥٢ • ويعطينا الكتاب احساسا علميا سليما بأن الانسان ليس كائنا مقهورا مستسلما ، بل هو كائن يقاوم الظلم ويفكر فى التقدم ويعمل من أجله باستمرار ، أما الكتاب الثانى فهو « المرأة ليست لعبة الرجل » وفى هذا الكتاب يبرهن على حرية المرأة ووظيفتها الصحيحة فى المجتمع الاشتراكى برهنة دقيقة يجب أن تصبح جزءا من التفكير العادى لكل مواطن •• أما الكتاب الثالث فهو « نظرية التطور وأصل الانسان » وهذا الكتاب يشرح نظرية التطور بأبسط الأساليب وأقلها تعقيدا وبعدا عن الاصطلاحات الصعبة • ويساعد الكتاب على أن « يجعل من التطور مزاجا فى الشعب بحيث يبقى على الدوام متجها نحو المستقبل راغبا فى الارتقاء لا يعارض التغير ولا يميل الى الجمود ••

أما الكتاب الرابع « فهو تربية سلامة موسى » وهو أجرأ وأصدق كتاب اعترافات فى الأدب العربى الحديث • وهو اعترافات انسان يحاول أن يكون مفيدا للحياة بأعمق معانى الكلمة •• وهو كتاب يساعد القارىء مساعدة جدية على اكتشاف طريقة •• واكتساب طابع ايجابى فى التصرف والعمل • ومعرفة قيمة المجتمع الاشتراكى الراهن بالقياس الى الصورة الأليمة التى رسمها سلامة موسى للمجتمع القديم قبل الثورة ••

أما الكتاب الخامس فهو تتمة الى حد كبير لكتاب « تربيه سلامة موسى » هذا الكتاب هو «هؤلاء علموني» وهو كتاب يقود قارئه في ميدان الثقافة الانسانية قيادة أمينة مخلصة .

ولا يمكن أن تكتمل ثقافة المواطن الأساسية دون الالمام بالمعنى التاريخي والمعنى النظري لفكرة القومية العربية . وهذا الموضوع قد وجد مفكرا عاش له ومن أجله أكثر من خمسين سنة كانت معارك حياته ، وطبيعة سلوكه وتصرفاته والنتائج التي يخرج بها من تجاربه وقراءاته . كل ذلك كان ينبع دائما من ايمانه العميق بالقومية العربية ، ودعوته الحارة من أجل انتصارها وتحقيق هدفها الكبير وهو اقامة الدولة العربية الكبرى الواحدة .

هذا الرجل هو ساطع الحصري ، لم يكتب منذ خمسين سنة في غير هذا الموضوع . وقد جمع كل ما يتصل به من معلومات دقيقة وقدمها في عدد من الكتب التي تمتاز بالوضوح ـ والدقة والبساطة والخلو من النزعة العاطفية التي تفسد الطابع العلمي للكاتب ، وهذه الكتب كلها جديرة بأن تصبح جزءا من ثقافة كل مواطن يجب أن يقرأها المواطنون في كل مكان من بلادنا ويدرسوها ويهضموها ، حتى تكون جزءا من ثقافتنا الشعبية العامة . وحتى يتكون لدينا أساس علمي راسخ للقومية العربية التي هي جزء من معركتنا الكبرى ، أو هي في الواقع الاطار الرئيسي العام الذي تدور فيه معاركنا ويتحدد في داخله موقفنا من المستقبل ».

ليس بالعدل وحده يحيا الانسان

« الفدائى » هو النموذج الانسانى الذى اكتشفه الأدب الحديث واهتم بتحليله وتفسيره وخاصة فى المسرح ، والفدائى فى الأدب الحديث ليس هو فقط الثورى الذى يقوم بعمل عنيف كالقتل والارهاب ، ولكنه انسان يعيش فى صراع مع نفسه كما يعيش فى صراع مع العالم من حوله ، ويخاف ، ثم يقدم على عمله فى لحظة خاصة من لحظات التوتر النفسى الكبير ، انه أكثر من أداة منفذة لجماعة من الجماعات أو لفكرة من الأفكار بل هو عقل وقلب يدور فيهما صراع كبير .

والفدائى أساسا هو ذلك الذى يحمل « شهوة لاصلاح العالم » ويعيش فى حلم واحد كبير هو حلم تغيير المجتمع ، ولا يشعر بحريته الشخصية بل يعتبر هذه الحرية سجنا « ما دام هناك انسان واحد مستعبد فى الأرض » .

انه الانسان الثائر الذى يريد أن يدمر عالما ينتشر الظلم فيه ليقيم عالما مليئا بالعدل والمساواة .

وقد انعكس هذا النموذج فى الأدب المعاصر ، وهو الأدب الانسانى الوحيد الذى كتب عن الفدائى وحلل شخصيته ونفسيته ، وأحلامه ، ومخاوفه تحليلا دقيقا .. وربما كانت أهمية هذا النموذج راجعة الى أن الانسانية لم تعرف هذا القدر من الثورات الذى عرفته خلال المائة سنة الاخيرة ، ففى كل هذه الثورات كان الفدائى هو روح الثورة ، ونموذجها الأساسى ، وسلاحها الحاسم الذى نخوض به أخطر المعارك وأهمها .

ولكن الأديب المعاصر قد أدرك أن « الفدائى » ليس نموذجا واحدا بل هو أكثر من نموذج ، فهناك اختلاف جوهرى بين فدائى وآخر بحسب

اختلاف الطبيعة النفسية وبحسب اختلاف الظروف التى نشأ « الفدائى » فيها ، وبحسب اختلاف التجارب التى عرفهـــا قبل أن يتكون بصـــورة نهائية •

فهناك الفدائى الفنان الذى يقبل على عمله بعاطفة حارة ملتهبة •• ان خياله خصيب وأحلامه رائعة ، ولذلك فهو يقتحم معركة الواقع وهـــو يتصور صـــورة المستقبل ، انه قد يقتـــل ، ويتعرض للشنق أو للضرب بالرصاص ، ولكنه يفعل ذلك بقوة روحية عميقة لأنه يتصور العدل وهو يخـــرج من بين يديه وينتشر فى المجتمع فيملأ الأرض بالخصب ويملأ القلوب بالسعادة الكبيرة ، ومثل هـــذا الفدائى تنبع ثوريتـــه من الشعور والاحساس أكثر مما تنبع من المعرفة والعقل ، انه ليس سياسيا بقدر ما هو متصوف بحب بلاده ويؤمن بالعدل ويغامر فى سبيلها حتى بحيـــاته انه حار دافىء لا يتردد ، تملؤه حماسة الأنبياء واقتناعهم برسالتهم واعتمادهم الكبير على حيويتهم المعنوية • انه يرى الظلم والعذاب وينكرهما ، ويظل يحبس أحزانه وجراحه حتى ينفجر آخر الأمر فى ثورة عنيفة ملتهبة•

وأصدق مثال أدبى لهذا الفدائى الفنان هو «كالياييف» أحد أبطال مسرحية « العادلين » للكاتب الفرنسى البير كامى ، وهو ليس شخصية من صنع خيال كامى ، بل اشترك الواقع والخيال معا فى تحديد ملامحها ، فهى أيضا شخصية حقيقية واقعية عرفتها روسيا سنة ١٩٠٥ فى جمعية ثورية أنشئت لقتل الدوق الكبير « سيرج » عم القيصر ، وكان كالياييف هـــو الشاب الذى قام بتنفيذ المؤامرة وهو الذى قتل الدوق •

وعندما ذهب كالياييف الى زملائه فى المنظمة دار بين عضوين من الأعضاء هذا الحوار :

« انكوف : انه كالياييف ونحن ندعوه أيضا بالشاعر •

ستيبان : ليس هذا لقبا لارهابى •

انكوف : أما كالياييف فيعتقد العكس •• فهو يرى أن الشعـــر ثورى •

ستيبان : « لا تورى الا القنابل » .

وتتضح لنا شخصية هذا الفدائى عندما يذهب لتنفيذ المؤامرة ، انه يتراجع عندما يرى عربة الدوق وتفشل الخطة ، وتعود المنظمة الى محاكمة كاليايف : لماذا تراجع ؟ أهو الخوف والتردد ؟ كلا . انه سبب آخر عجيب .

لقد وجد كاليايف فى عربة الدوق طفلين لا ذنب لهما ، ان الذى يستحق القتل هو المجرم فقط ، والمجرم هو الدوق ولا أحد سواه ، ولو ألقى القنبلة على العربة لمات الدوق ومات معه الطفلان . ويصرخ كاليايف فى زملائه :

« كاليايف : ليس بالعدل وحده يحيا الانسان .

ستيبان : فبأى شىء يحيا البشر ، اذا كان القوت قد سرق منهم ، ان لم يكن بالعدل ؟

كاليايف : يعيشون بالعدل والبراءة معا .

وأخذ يدافع بحرارة وانسانية عميقة عن وجهة نظره . ان عمله الثورى النبيل يجب ألا يتلوث بقتل الأطفال أبدا . ان هذا النوع من القتل هو فشل ذريع له كثورى . فتحقيق العدل لايحتاج أبدا الى قتل الأبرياء ولا يجوز أن يلجأ الى قتلهم .

« كان هناك أطفال صغار فى عربة الدوق الكبير ، ما كان لى أن أتنبأ. أطفال صغار خصوصا . أنظرت الى أطفال صغار فى حياتك ؟ الى هذه النظرة نظرتهم الهادئة الرصينة أحيانا ... اخوتى .. أنظروا الى جميعا يا اخوتى !! حدقوا فى . ما أنا بجبان ولم أتراجع قط عن عزمى بل كل ما فى الأمر أننى لم أتوقع وجود الطفلين ، فقد جرت الأمور بسرعة بالغة .. أمامى وجهاهما وفى يدى هذا الثقل الرهيب ، وكان على أن أقذفهما به . هكذا رأسا ... آه . كلا !! لم أستطع .. فيما مضى عندما كنت أقود العربة عندنا فى أوكرانيا كنت أسابق الريح وما كنت أخشى شيئا

خشيتي من أن أدوس طفلا • كنت دائما أتصور الصدمة ، هـذا الرأس الطرى الصغير يضرب الطريق وهـو يتدحرج فى الفضاء •• ان قتـل الأطفال يناقض الشرف ، واذا ما انفصلت الثورة يوما عن الشرف وأنا على قيد الحياة فسأتنكر لها ••• ان للثورة شرفا هو الذى من أجله نموت ومن أجله نعيش •• »

تلك هى نفسية فدائى ، هو فى نفس الوقت شاعر فنان رقيق القلب لايريد أن يلوث يديه بدم الأبرياء حتى ولو كان ذلك فى سبيل العدل ، انه ثورى أجل ••• ولكن الثورة عنده ليست هى وجهة نظر نيرون الذى لم تعجبه روما فحرقها واستمتع بمنظر دمارها وكانت حجته الغريبة هى أنه يريد روما جديدة أروع وأجمل ، ولكن السبب الحقيقى كان هو ارضاء شهوة التخريب والتدمير فى نفسه •

أما كالياييف فهو يريد أن يهدم بالقدر اللازم المحدود ولا يريد أن أن يهدم أى شىء وكل شىء انه يقول « لا » للعالم القديم الملىء بالظلم ولكنه يقول فى الوقت نفسه « نعم » لعالم جديد نبيل يريد أن يبنيه ، انه يقول « لا » و « نعم » فى الوقت نفسه فهو يأخذ ويعطى وهو قوة سالبة وقوة موجبة تتكاملان لتخلقاوجها صحيحا للحيـــاة وهو لايحب الجريمة ولا يؤمن بها ولكنه يلجأ اليها كضرورة محدودة ينفذها فى أضيق ـ نطاق من أجل أهدافه ومبادئه •

فى المحاولة الثانية ينجح « كالياييف » فى قتل الدوق وحده دون أن يقتل أحدا معه ويقبض على كالياييف ويرفض أى اغراء بالعفو عنه فى سبيل الاعتراف بحقيقة المؤامرة ، وتكون النتيجة أن يشنق فى الساعة الثانية من منتصف الليل ، والبرد قارس ، والجماهير تشاهد وترتعد •• وهكذا يصل هذا الثورى الفنان الى النهاية التى أعد نفسه لها من أجل العـدل والبراءة معا •

واذا كانت شخصية الفدائى السابق تقوم على الحب أكثر مما تقوم على الحقد ، فهناك طراز آخر من الفدائيين تقوم شخصيته على الحقد أكثر مما

تقوم على الحب ، وفى نفس مسرحية « كامى » نجد هذا النموذج الثانى للفدائيين ، انه ستيبان « الذى يؤمن بالارهاب المطلق ويجعل المنظمة التى ينتسب اليها فوق كل شيء ، ويجعل مبادئها أيضا فوق كل شيء حتى الحياة نفسها ، وهو لذلك شخص جامد متعصب يأخذ الحياة كأنها معادلة حسابية جامدة ، وعندما ظهرت مشكلة الأطفال كان يرى أن من الضرورى قتل هؤلاء الأطفال ويسأله زميله الفدائى النبيل كاليابيف :

« أفتستطيع يا ستيبان أن تطلق النار على طفل عن كثب وأنت مفتح العينين »

ستيبان : أجل أستطيع ذلك ان أمرتنى به المنظمة •• اننا عندما نعتزم أن ننسى الأطفال عندها نصبح سادة العالم وعندها أيضا تفوز الثورة وتنتصر »

انه داعية صريح لثورة حمراء عنيفة دامية تأكل كل شيء فى طريقها: البرىء والمذنب •• كل شيء حتى الأطفال الأبرياء الذين لا رأى لهم ، والذين هم صفحات بيضات نقية ، انه ارهابى طاغية يرى « أن كل شيء مباح» ولا « شيء مما يمكن أن يخدم قضيتنا ممنوع » حتى ولو كان هذا الشيء هو قتل الأطفال أو الكذب أو الخيانة انه « مكيافيللى » كريه لابأس عنده من أن تتحقق العدالة « حتى على أيدى المجرمين » •

وهو لايهمه حتى الشعب •• والمفروض أنه يعمل من أجل الشعب •• يقول له أحد زملائه فى المنظمة :

« اذا قتلنا الأطفال فما العمل اذا نبذتنا الانسانية جمعاء ؟ • وما العمل اذا أبى الشعب بأجمعه ؟ • والذى من أجله نناضل أن يقتل أطفاله زورا وبهتانا •• فهل يجب أن نسحق الشعب أيضا « فيرد ستيبان : « أجل وبكل تأكيد يجب أن نعمل فى الشعب هراواتنا اذا لزم الأمر » •

هذا هو الفدائِى الفوضوى ، الذى يؤمن بمبادىء معينة لخدمة الحياة والانسان وسرعان ماتتحول هذه المبادىء عنده الى شيء يفوق الحياة والانسان أهمية وقيمة ، وتنقلب القضية فيصبح الانسان والحياة فى خدمة تلك المبادىء انه فدائى حاقد لانملك الا أن نكرهه ونرفضه ونرفض أى خير يأتى

للانسانية على يديه الملوثتين بالدم ، انه هنا صـورة من نيرون الذى يحرق ويدمر ولا يعرف كيف يبنى ، يقول « لا » ولا يعرف أبدا كيف يقول نعم .. يأخذ دائما ولا يعطى أبدا .

انه أسوأ وجه من وجوه الثوريين وهو الوجه المتعصب الحاقد الذى لايرى روعة الانسان والحياة ولا يحلم الا بالدم .

نصل بعد ذلك الى النموذج الذى يقدمه لنا مصطفى الأشرف الفنان الجزائرى الذى اختطفته فرنســا فى حادثة الطائرة المعـروفة مع الزعيم بن بيللا .

وقد لايعرف الكثيرون أن مصطفى الأشرف ثائرسياسي وكاتب مسرحى موهوب فى الوقت نفسه . وفى مسرحية عنوانها « السد الأخير » يقدم لنـا مصطفى الأشرف نموذجا للفدائى ليس واحدا من النموذجين السابقين ، بل هو أعمق وأشمل بحيث لانجد له تسمية أصدق من « الفدائى الانسان» . وهذا النموذج من الفدائيين هو ثمرة الثورة الجزائرية وقوتها الحقيقيـة . انه لايحترف الثورة بل يدخلها عندما تدفعه « التجربة الحية » . الى طريق الثورة ولا يصبح أمامه طريق آخر . هو بسيط طيب قليـل الكلام كثير العمل ، تقوده فطرته واحساسه المباشر بالحياة .

والتجربة الحية التى خلقت مرزوقا « الفدائى » العربى الجزائرى هى تجربة متنوعة يكشفها لنا مصطفى الأشرف فى الفصول المختلفة لمسرحيته . فالمرأة الجزائرية هى حلقة من حلقات هذه التجربة . فهذه المرأة تعيش فى وحدة كاملة .

تقول امرأة من الجزائر « لقد أخذوا منا رجالنا فأى حياة بقيت لنا ؟ » وتقول أخرى « اننا نسوة مسكينات وحيدات لكننا سنعرف كيف نقوم بكل الأعباء ، وعندما ينضج الألم هؤلاء النسوة قليلا تقول احـداهن « رجالنا ؟ انهم فى السجن يصنعون ملح رغيفنا » وتقول أخرى « لقد أصبحنا نعرف مايعرفه الرجال ، ولكنى أعيش فى خوف على ولدى وعلى جميع الأولاد ..

اني أرى كل يوم جماعات من الأطفال يضطربون بين باب وآخر مرددين ضراعات لايفهمون لها معنى » .

من هذه الأحزان تتكون نفسية المرأة الجزائرية ، من الوحدة والبعد عن الزوج والشقيق واحتمال مسئوليات الرجال وأعمال الرجال ، ورؤية الأطفال ضائعين تائهين يرددون دعوات وضراعات أكبر من سنهم بكثير،من من هذا كله تتكون النفسية التي تحملها المرأة الجزائرية والتي أحسها وعاشها بعمق « مرزوق » قبل أن ينضم الى الثوار في الجبل هذه هي التجربة الحية الأولى التي لسعت بآلامها وأحزانها قلب مرزوق .

ولكن مرزوق أدرك وأحس كيف يعامله الضباط والجنود الفرنسيون ويعاملون أبناء الشعب أن لهم نفسية خاصة يمكن اكتشافها ومعرفتها من التصرفات الصغيرة الكثيرة التي يلمسها مرزوق هنا وهناك .

وفي فصل من فصول المسرحية يكشف لنا مصطفى الأشرف عن نفسية الضابط الفرنسي على حقيقتها . ان هذا الضابط يبرر عمله بقوله : « في هذه البلاد يجب أن نحسن تمثيل فرنسا فلنركل ولنضرب بالعصي والرصاص ، تلك هي الوسيلة المثلى لحمل الجزائريين على احترامنا » .

ثم يسكت قليلا ويقول : ـ

« ... ثم اننا بدون ذلك يصيبنا السأم ولا يهتم بنا رؤساؤنا ولا يمنحوننا رتب الترقية وأوسمة البطولة » .

فنفسية الضابط الفرنسي هي نفسية « سادية » مريضة بالرغبة في تعذيب الآخرين ، انه يعالج الملل والسأم عن طريق قتل الجزائريين ، واهانة نساء الجزائر بكل صور الاهانة وهي أيضا نفسية مغرورة كأية نفسية تتغذى من الارهاب وتشعر بالنشوة من رؤية الدم فالضابط يتصور أن أعماله هي نوع من ـ البطولة . لقد عجز عن رؤية الحقيقة بعد أن تسممت أفكاره وحواسه ومشاعره ..

يقول الضابط بفخر : ـ

« أنا أحب الحرب ، ومن أجلها أبقى ، ويبدو أن الأمور ستتطور في

الجزائر الى أسوأ . وهذا مايسرني ، سيتوفر العمل والمجـد للجميع . فلننتهز الفرصة » .

ثم يقول الضابط لأحد جنوده « أنت تعلم أنه حان الوقت أن أستقر وأبني عشا ـ وأملك شيئا تحت الشمس .. بطبيعة الحال سيكون كل شيء هنا في هذه الأرض الغنية » .

هذه هي نفسية المستعمر الفرنسي التي تمثل حلقة من حلقات التجربة الحية التي عاشها الفدائي « مرزوق » ان الفرنسي يحارب من أجل « الترقية » ومن أجل « بيت وأرض وثروة وزوجة » فالحرب توفر العمل للمتعطلين ، وتوفر فرصا واسعة للمغامرين من طلاب الثروة والمجد وهذا هو الفرنسي المستعمر على حقيقته .

من هذه التجارب التي عاصرها وعاناها مرزوق هذا العامل الشاب خرج من سلبيته لينضم الى الثوار في الجبل ويجيب عن السؤال الذي سأله أحد مواطنيه في يوم من الأيام : ترى مامصير هذه الأرض التي نحرثها بأظافرنا وتجيعنا كامرأة الأب .. ونحبها برغم ذلك ؟ .. أوه انني لم أعد انسانا .. انني بئر آلام ..

ويخرج مرزوق من التجربة الحية انه عامل بسيط لايفهم الحرب ولا يحب الحرب ، ولكن تجربته وفطرته السليمة تدلانه على أن الثورة هي الطريق الوحيد وهاهو ذا يتسلل في الليل ليرى زوجته وطفله ويقول لزوجته :

« لقد أصبحنا في الجبل غير ماكنا اكتشفنا بلادنا وشعبنا من خلال آلاف الوجوه المختلفة .. وبفضل كفاح ثوري مشترك ، فاما أن يحطمنا هذا الكفاح ، واما أن نحطم هذا الوحش الطليق » . اننا في الجبل كثيرون جدا ، عمال مثلي وموظفون صغار وكبار .. رياضيون وفلاحون وعلماء .. كلنا نؤمن بأن الخلاص هو في الكفاح الثوري المسلح » .

وكان مرزوق في الماضي قبل أن يختار طريق الفدائيين صاحب مبدأ بسيط في السياسة . كان يؤمن بالانتخابات . والديموقراطية الغربية

والمفاوضات ، والطرق السلمية • ولكنه اكتشف أن هـذا الطريق زائف لايؤدى الى شيء ولا يحمى زوجته أو طفله أو بيته • ان الشعب لم يعـد يثق بأحد من السياسيين ـ القدماء وهو دائما فى انتظار الساعة التى يعمل فيها بنفسه ولنفسه •

ويقول مرزوق لزوجته أيضا :

« ان جنودنا برغم نحول أجسامهم وهزالهم يقفون فى وجه جيش ضخم •• والأغرب من هذا أنهم يكرهون الحرب التى ذهب ضحيتها أهلهم • يشهد الله اننا نكره الحرب • ولكننا أيتام وطن يموت كل يوم وليس لنـا طريق آخر » ؟•

هذا هو الفدائى الانسان « مرزوق » العامل البسيط الذى سـار فى طريق الثورة بلا حقد •• واختار أن يعرض نفسه للموت بعـد مقدمات نفسية هى تجارب نساء بلاده وشيوخ بلاده وأطفال بلاده ، لقد ترسبت التجربة فى نفسه يوما بعد يوم •• وهو الآن فدائى •• عدو لغرور الفرنسيين وطغيانهم وأمراضهم النفسية انه هو الفدائى الانسان الذى عرف الثـورة بالقلب والتجربة • ولم يعرفها بالفلسفة والسفسطة • انه كل ثائر نبيل شم رائحة الجبال ونام فى خيمات الثوار ، واحتضن بندقيته دون أن يمنحهـا الحب •• لأن عواطفه كلها كما يقول مرزوق هى « من أجل أن يعيش ابننا حرا فى بلد حر ولكى يكون له ملايين من الاخوة والأخوات أحرار فى بلاد لايملكها الآن الا حفنة من الطغاة » ••

ونحن نذكر أحلام مرزوق اليـوم بحب بعد أن انتصرت الجزائر وحصلت على استقلالها بكفاح « مرزوق » و « اخوان مرزوق » •

القوميون السوريون والأدب

- ١ -

من الخطأ أن نظن أن الاستعمار يعتمد على القوة فقط .

فالحقيقة التي يجب أن نعرفها ونعترف بها هي أن الاستعمار يقوم بدوره العملي بعد تخطيط علمي ونفسي دقيق ، ولذلك فقد استخدم الاستعمار مهندسين عباقرة أذكياء اختارهم من مختلف الميادين لكي يساعدوه على رسم خططه وتنفيذها .

ويكفي أن نتذكر بعض الأسماء التي خدمت الاستعمار البريطاني لنعرف نوع - الاستعمار الحديث ومدى قوته .

مثلا : -

سومرست موم ، وهو أديب بريطاني كبير .. ومن ألمع كتاب القصة في العالم . كان يعمل في المخابرات البريطانية للشئون الآسيوية .

توماس أدوارد لورانس . وهو مفكر بريطاني .. ومغامر من أكبر المغامرين العباقرة الذين عرفهم التاريخ . كان هو الأداة الأولى لبريطانيا وأنبغ مهندسيها ومنفذي سياستها في منطقة الجزيرة العربية .

سانت جون فيلبي الذي أسلم وسمى نفسه الحاج عبد الله فيلبي ، هو المخرج الماهر الفذ لمسرحية الملوك والعروش في الوطن العربي .. كان هذا الرجل يعمل منذ شبابه الأول في خدمة الامبراطورية البريطانية . وكان «يخلع» دينه ولغته وزيه الغربي ليرتدي أية لغة وأي دين وزي مما يناسب دوره الذي كان يؤديه باتقان .. غريب ..

كل هذه الأمثلة تدلنا على شيء واحد : هو أن الاستعمار كان يعمل دائما بعقل وفهم واسعين لتنفيذ خططه وأهدافه .

وقد توصل هذا الاستعمار الى محاربة الوطن العربى من الداخل عن طريق عدة وسائل كان على رأسها شن حرب ابادة أدبية وفكرية ضد الأدب العربى والفكر العربى ..

وكانت أذكى تجربة وأعمق تجربة للاستعمار هى تجربة القوميين السوريين فقد فهم الاستعمار هذه الحركة منذ البداية وأحس بها فاحتضنها ورعاها . وقدم لها الوقود كلما هبت عليها العواصف وأوشكت شعلتها ان تنطفىء .

ولم تكن حركة القوميين السوريين حركة سياسية فقط بل كانت منذ البداية حركة واسعة تهدف الى السيطرة على العقول بأوسع صورة ممكنة .

وقد قدر لهذه الحركة أن تبدأ على يد زعيم مندفع « متهوس » على قدر كبير من الذكاء والكراهية المتأصلة للقومية العربية والوحدة العربية .

ذلك هو أنطون سعادة ..

ولا يمكننا أن نفهم أدب القوميين السوريين وهدفهم من خلق هذا الأدب ، دون أن نفهم الأفكار الرئيسية التى نادى بها أنطون سعادة فهذه الأفكار هى الدائرة التى يدور فيها أدب القوميين السوريين ، وهى المادة الأساسية لهذا الأدب .. وهى « الجو العام » الذى يعيش فيه ..

لقد فهم هذا الزعيم أن حركته بحاجة الى أحلام تتعلق بها ، وبحاجة الى أدب ينبع من هذه الأحلام ويرسخها فى الأذهان والنفوس .

وحدد أنطون سعادة منذ البداية ثلاثة أهداف فكرية ونفسية لحركته .

كان الهدف الأول هو خلق « الفردوس المفقود » الذى يحبه ويعشقه القوميون ــ السوريون ، ويعملون على اعادته وتحقيقه فى الواقع .

وقد وجد أنطون سعادة هذا « الفردوس المفقود » فى « سوريا الكبرى »

واعتبرها امتدادا للحضارة الفينيقية التى ظهرت فى سوريا ثم فى شمال أفريقية قبل الميلاد - بثلثمائة سنة تقريبا ، فسوريا الكبرى فى نظر هذا الزعيم هى اعادة لمجد الفينيقيين ، وحضارتهم • وبعث للعظمة الفينيقية والسيادة الفينيقية على البحر المتوسط •

وسوريا الكبرى أو فينيقيا « المجيدة » هى الفردوس المفقود ، وهى الحلم الضائع ، وهى الأمل الكبير بالنسبة للقوميين السوريين •

والهدف الثانى الذى حاول أنطون سعادة أن يحققه من الناحية الفكرية هو خلق رمز تاريخى لفكرته • وقد استطاع أن يجد هذا الرمز فى شخصية القائد الفينيقى السورى القديم هانيبال الذى ولد فى شمال أفريقيا ومات فى سوريا والذى دخل فى حروب طويلة مع الرومان خلال الفترة الممتدة بين ٢٦٤ و ٢٠٢ قبل الميلاد ، وقد وصلت جيوش هانيبال الى أبواب روما ، واستولت تحت راية الفينيقيين على كل شمال ايطاليا •• وتحت قدمى هذا الفارس الفينيقى ركعت ايطاليا وذرفت دموعا ودماء غزيرة وان كانت الحرب قد انتهت بسحق هانيبال وهزيمته •

والهدف الفكرى الثالث الذى حاول أنطون سعادة أن يحققه هو احياء أساطير قديمة تساعد الحركة وترمز اليها وتدل على لونها وشخصيتها الخاصة •

ولم يجد أنطون سعادة للفينيقيين القدماء أساطير معروفة • فقد كانوا ذوى حضارة عسكرية تجارية • أكثر منهم أصحاب ثقافة وفكر •• ولذلك لجأ « سعادة » الى الأساطير البابلية والآشورية لاحيائها وبعثها • ودعا الى استخدامها فى الأدب القومى السورى وبذلك يكون هذا الأدب بصورته الخاصة التى تميزه عن غيره تماما ! ••

وكان أهم هذه الأساطير التى وقف عندها القوميون السوريون: تموز وعشتار وأدونيس •

وتموز عند البابليين هو « ابن الحياة » أو اله الخصب وعشتار هى زوجة تموز التى تشاركه فى الرمز للخصب والاخضرار وأدونيس هو اله

آخر من آلهة بابل يرمز للخير • وتقول الأسطورة القديمة انه ثمرةلعلاقة آثمة بين الملك القديم ثياس وابنته « ميرها » • وقد تحولت « ميرها » عقابا لها على خطيئتها الى شجرة • ومن جوف هذه الشجرة خرج أدونيس •• رمزا للحياة الجديدة الخالية من الاثم والرذيلة ••

هذه هى الأفكار التى استطاع سعادة أن يغرسها فى نفوس القوميين السوريين وان يجعل منها الأسس التاريخية والنفسية لحركته • •والتىظل الاستعمار حتى اليوم يحاول أن يدفع عنها كل عوامل الذبول والفناء •

وهذه الأفكار هى نفسها التى يقوم عليها أدب القوميين السوريين الذين يتركزون الآن فى لبنان •• ويحولون أن يجعلوا من الأدب خادما للخيانة السياسية التى يمارسونها ضد العرب والوطن العربى •

فأدب القوميين السوريين يقوم فى جوهره على الحنين الى الفردوس المفقود •• والجنة الضائعة •• الى فينيقيا •• انه أدب ملىء بالحنين والدموع على فينيقيا أو سوريا الكبرى •

ويعتمد هذا الأدب أيضا على احياء شخصية هانيبال : البطل الفينيقى القديم •

ويعتمد كذلك اعتمادا واضحا على الأساطير البابلية والآشورية التى أحياها وأعادها الى الوجود أنطون سعادة •

وبالطبع يعتقد القوميون السوريون أنهم يعيشون فى«الأرض الخراب» وأن عليهم أن يعلنوا « التشاؤم والحزن » وأن يعلنوا « الفوضى » كذلكعلى حد تعبير شاعرهم الأول على أحمد سعيد الذى سمى نفسه باسم أدونيس •• كل ذلك لأنهم لم يحققوا أحلامهم ولم يصلوا الى فردوسهم المفقود •

هذه هى المبادىء التى يعيش عليها أدب القوميين السوريين ويتغذى منها • وهذا هو الاطار العام الذى يدورون فيه ويتحركون خلاله لتحقيق هدفهم البعيد وهو مقاومة الفكرة العربية والوحدة العربية ••

ولنقف لحظة لنناقش هذه المبادىء •• قبل أن ننتقل الىمناقشةالنماذج المختلفة لأدبهم بالتفصيل •

ان مايقوله القوميون السوريون عن عظمة الفينيقيين القدماء لا مجال لمناقشته فى « حد ذاته » .. فليس هناك من ينكر عظمة الفينيقيين ودورهم الكبير فى حضارة العالم فى تلك الفترة من التاريخ .. قبل ألفى سنة ..

وليس هناك من ينكر عظمة هانيبال كبطل عسكرى وعبقرية حربية فذة خرجت من الشرق لتتحدى أكبر أمبراطورية فى العالم فى ذلك الحين وهى الامبراطورية الرومانية .

بل أكثر من هذا ، فان من الممكن بنظرة تاريخية عميقة أن تعتبر كل هذه الحقائق جزءامن ماض يعتز به العرب بالمعنى العصرى لكلمة « عرب » .

فالعرب المعاصرون هم حصيلة امتزاج حضارى عميق التقت فيه حضارات قديمة كانت موجودة فى تلك المنطقة وذابت وانصهرت ليتكون منها فى النهاية مانسميه بالحضارة العربية . فالحضارة العربية فى جانب من جوانبها هى امتزاج وانصهار بين كل حضارات تلك المنطقة من فينيقيين وفراعنة وبابليين وآشوريين وعرب قدماء ..

ولكن هذا الانصهار قد انتهى الى خلق « شعب عربى » واحد تحكمه صفات أساسية مشتركة .

ولو اتجهت كل الشعوب المعاصرة الى العودة لوضعها منذ ألفى سنة لما أصبح هناك شعب واحد من شعوب العالم المعاصر مستحقا للبقاء الى اليوم .

لن يبقى شعب واحد ولن تبقى أمة واحدة بل سينتهى كل هذا ويصبح وهما من الأوهام ..

ولكن القوميين السوريين يمجدون الحضارة الفينيقية التى انبثقت من سوريا ثم يرفضون الاعتراف بالحضارة العربية وقيمة الحضارة العربية .

والتاريخ يقول : ان العرب الأمويين الذين خرجوا من سوريا بالذات هم الذين أقاموا فى شمال أفريقية واسبانيا حضارة تفوق حضارة الفينيقيين الروحية والمادية . .

فلماذا ينتسب السورى ـ فى رأى القوميين السوريين ـ الى الحضارة الفينيقة ويتبرأ من الحضارة العربية التى هى الطابع الأساسى لسوريا منـذ ألف وخمسمائة سنة تقريبا •

ان العلم لايفسر هذا الموقف ولكن الذى يفسره هو الفكرة الاستعمارية التى تقف وراء القوميين السوريين وتدفعهم لعداء الفكرة العربية والتآمر عليها •

ولنقف لحظة أمام الأساطير البابلية التى أحياها أنطون سعادة وأدباء القوميين السوريين هذه الأساطير التى تتركز فى تموز وعشتار وأدونيس •

ان أى عربى مخلص لعروبته لا يجد ما «يجرحه» فى استخدام هذه الأساطير استخداما أدبيا كما لايجد ما يجرحه فى استخدام الأساطير الفرعونية مثل « ايزيس وأوزوريس » فذلك حق للعرب قبل أن يكون حقا لغيرهم والبابليون والآشوريون عاشوا فى العراق • والعراق جزء من صميم الوطن العربى اليوم • والفراعنة عاشوا فى مصر • ومصر من صميم الوطن العربى اليوم ••

ولكن استخدام هذه الرموز لدعم فكرة سوريا الكبرى وللوقوف فى وجه الفكرة العربية هو الخطأ الكبير المقصود •

ولكن لماذا استخدم القوميون السوريون أصحاب الدعوة الفينيقية أساطير حضارة أخرى هى الحضارة البابلية؟ السبب فى ذلك هو أن القوميين السوريين يعتبرون العراق موطن الحضارة البابلية ـ جزءا من سوريا الكبرى ولو أخذنا السوريين القوميين بمنطق العلم لقلنا انهم على هـذا الأساس ـ يسلمون بامتزاج الحضارات وانصهارها • لأن العراق لم تكن على علاقة فى الماضى بالحضارة الفينيقية •

انهم يوافقون على هذا القانون التاريخى عندما تكون المسألة امتزاجا وانصهارا بين سوريا والعراق •• ولكنهم يتجاهلون قانون التاريخ أمام حقيقة أخرى كبيرة •

فالفينيقيون قد أقاموا أعظم جانب من حضاراتهم فى قرطاجنة فى شمال افريقية أى فيما ـ نسميه اليوم بالمغرب العربى ، وقد قامت حضارة الفينيقيين فى تلك الفترة على أساس الامتزاج والانصهار والتزاوج مع المغاربة •

فلماذا لاتكون الحضارة الفينيقية كما هى فى الواقع وليدة الامتزاج العميق بين السوريين والمغاربة ؟ •• لماذا لايكون هذا دليلا على أن الماضى نفسه يقدم لنا أدلة قوية على الصلة الجوهرية بين أنحاء الوطن العربى كله ؟ ••

ان هذا أصح من ناحية الواقع التاريخى من التوحيد بين البابليين فى العراق وبين الفينيقيين فى سوريا •

ولكنها مغالطات مقصودة تهدف فى النهاية الى : خلق فكرة ، مغرية يمكن لصغار النفوس وصغار العقول أن يلتفوا حولها بحماسة •• وحتى تكون هذه الفكرة مدرسة قوية لتخريج عناصر تحارب الفكرة العربية من داخل الوطن العربى •

وهذه المغالطات تهدف أيضا الى المساعدة على بعث الأقليات الفكرية والدينية والعنصرية الأخرى فى الوطن العربى (الفرعونية فى مصر ، الكردية فى العراق ، البربرية فى المغرب ، قبائل جنوب السودان فى السودان) •

وهذه الأقليات ستؤدى فى النهاية ـ بحسب الفهم الاستعمارى ـ الى اضعاف الوطن العربى وتمزيقه من الداخل •

انها لن تؤدى أبدا الى اعادة فينيقيا الى الوجود ولن تعيد الفراعنة أو البابليين •• فكل هذه الاتجاهات قد اندثرت أجزاء منها ، وذابت أجزاء أخرى فى الحضارة العربية وأجزاء ثالثة قد تجمدت ولم تعد صالحة الا للمتاحف والذكريات • ولكن هذه الأفكار قد خلقت حركة أدبية فكرية لها شعراؤها وكتابها وفلاسفتها ، وهذه الأفكار بالذات هى بذرة من بذور الشر فى حياتنا الأدبية والسياسية •

القوميون السوريون والأدب

- ٢ -

لنبدأ بالحديث عن أمير شعراء القوميين السوريين على أحمد سعيد أو « أدونيس » كما يسمى نفسه • ويسميه القوميون السوريون •

سنرى كيف تحولت أفكار القوميين السوريين وأحقادهم على العرب والقومية العربية الى شعر وفن ••

وأدونيس هو « الاسم المستعار » للشاعر السورى على أحمد سعيد وهو شاعر شاب من دمشق ، خرج من بلاده هاربا منذ ست سنوات تقريبا وعاش تارة فى لبنان وتارة أخرى فى باريس وقد استقر أخيرا فى بيروت حيث يعمل مديرا لتحرير مجلة شعر التى تصدر أربع مرات فى العام •

وقد قرأت اسم هذا الشاعر لأول مرة فى مجلة الرسالة التى كان يصدرها الأستاذ يوسف السباعى • حيث نشرت له المجلة فى عدد من أعدادها الأولى قصيدة من قصائده •

وقد كان لهذه القصيدة التى لا أذكر اسمها ولا موضوعها أثر فى الأوساط الأدبية فى مصر • فأخذ الجميع يتساءلون فى همس : من هو أدونيس ؟ وكان سبب السؤال أن •• القصيدة كانت تكشف عن شاعر موهوب له طعم ولون وشخصية خاصة وهذه هى العادة دائما فى الأوساط الأدبية عندما يسمع الأدباء صوت أصابع جديدة فى الميدان الأدبى •• اذا كانت هذه الأصابع ذات نغم خاص وطابع خاص فان الهمس يدور بين الجميع : من صاحب الأصابع الموهوبة ؟ • من صاحب الصوت الجديد ؟ • أما اذا كانت أصابع متكررة عادية فانها غالبا ماتقابل بالصمت •

وبعد القصيدة التى أثارتنا فى مصر لم أعرف شيئا عن أدونيس الا بعد

ذلك بسنوات عندما سمعت أن الحزب القومى السورى يقوم بعمليات ارهابية فى سوريا ولبنان من بينها الاغتيال والنسف والحرق ، ثم عرفت أن أدونيس هو شاعر القوميين السوريين الكبير ، وانه الشباب الذى قربه زعيم الحزب أنطون سعادة اليه • بل هو الذى سماه باسم « أدونيس » على اســم الاله البابلى القديم • ثم عرفت أن الشاعر هارب من سوريا • وممنوع من دخولها أيضا لأنه يشترك فى مؤامرات الحزب القومى السورى •

ثم تتبعت انتاجه بعد ذلك ، فوجدت أن «الاتهام » الموجه اليه بأنه قومى سورى ليس اتهاما باطلا بل هو حقيقة يؤكدها شعره ، فهو يقول فى شعره أنا قومى سورى •

أنا ضد كل ماهو عربى وليس من الصعب أبدا أن نجد هذا الاتجاه فى شعره كما سنرى بعد قليل •

ولقد قربه « أنطون سعادة » زعيم القوميين السوريين اليه ، بعد أن وجده شابا ذكيا وشاعرا موهوبا وكان أنطون سعادة يحب أن يجعل لفلسفته أساسا من العلم والفن ، وكان يعلم تمام العلم أن الفن عموما والشعر على وجه الخصوص سلاح هام من أسلحة الدعاية السياسية •• انه سـند كبير لنشر أية فكرة من الأفكار •

وارتبط أدونيس بأنطون سعادة وأفكار أنطون سعادة وكان سعادة يكره كل شيء فيه رائحة العروبة ، وكانت أفكاره تهدف أولا وأخيرا الى محاربة القومية العربية والوحدة العربية ، ولم يكن شعر أدونيس سوى تطبيق فنى لهذه الآراء والأفكار ولا يمنعنى خلافى الكامل مع أدونيس • وايمانى بأنه خارج على مصلحة بلاده معاد لهذه المصلحة من أن أقول : « انه من الناحية الفنية شاعر موهوب ، ولكنه للأسف اختار أن يسير فى طريق مسـدود ، طريق يؤدى به الى كراهية بلاده والتآمر عليها ، طريق كل أحزانه زائفة وكل أفراحه وأحلامه زائفة أيضا •

ان نقطة البدء عند هذا الشاعر هى نقطة البدء عنـد كل فنان عربى أصيل تلك هى الثورة على الواقع العربى المعاصر والظمأ الى تغييره واخراجه

مما يعيش فيه من جمود وتخلف ، ان كل فنان عربى يدرك باحساسه وفطرته أن العرب بحاجة الى ثورة شاملة تغير الحياة وتعيد تنظيمها ، وكل حركة ثورية قامت فى الوطن العربى كانت تمس دائما قلب الفنان وتشجيه وتسعده . فيمنحها أغلى مايملكه من احساس وعاطفة وحب . وهذا هو احساس الفنان العربى أمام ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ فى مصر وثورة أول نوفمبر سنة ١٩٥٤ فى الجزائر وثورة ١٤ يوليو سنة ١٩٥٨ فى العراق .

ولنستمع الى « أدونيس » وهو يعبر عن حاجة الوطن العربى الى الثورة ، حيث ينجح للمرة الأولى والأخيرة فى الاستماع الى « نبض » بلاده وفى التعبير عن هذا النبض الأصيل الصادق وحيث يسير بعد ذلك للأسف الشديد فى السراديب المظلمة من حياته الفنية والسياسية .

يقول أدونيس فى قصيدة بعنوان « الفراغ » ..

سواعدنا خرق وركام ..
وأيامنا وأحلامنا نراجيل آسنة تزفر ..
وفينا قلوب ضبابية معتمة لاتحس ..
مدوخة شدها اليه ضياع ومس ..
وتخلق .. تخلق لا نبضها فتى . ولا دمها أحمر .
وفينا مشاعر لاترتوى .. من الذل من رشفه ..
وفى وعينا صفرة وانحلال وغدران حقد .

انها صورة كئيبة للحياة ، صورة رسمها شاعر ساخط يريد من الآخرين أن يشاركوه فى السخط ، وهى صورة قوية زاخرة بالجمال الفنى ، وفيها موسيقى غاضبة تقود الى المرحلة التالية وهى مرحلة الظمأ الكبير الى التغيير فمادامت الحياة بهذه الصورة المليئة بالملل والتأخر .. فالطريق الصحيح هو « الثورة » .

الا ثورة ، ثورة فى الصميم .

تشيد لنا بيتنا
وتجرى معاصرها زيتنا
وتملأ بالحاصدين الحقولا
وتملأ بالزارعين السهولا •
الا ثورة ، ثورة فى الصميم تنشئنا من جديد •
وتمحق فينا هوان العبيد
وتشعل فينا الأعاصير تشعل فينا الزوابع •

***

هذا هو الظمأ العميق الى التغيير الى الثورة عند أدونيس • وهذه هى المقدمة الوحيدة الخاضعة للمنطق الطبيعى فى شعر هذا الشاعر ، ولكن أية ثورة يريد ؟ •• انه يستعرض المفاهيم المختلفة لكلمة الثورة فى الوطن العربى ، ويختار من بينها أسوأ مفهوم •• ذلك هو المفهوم الذى قاده الى أن يكون داعية من دعاة الهدم والتخريب • وخارجا على عقائد الشعب قبل الحكومات فى البلاد العربية ، وواحدا من الأدوات التى تقوم على تنفيذ خطط تم رسمها فى باريس ولندن •

انه يدعو الى « الثورة » كما يفهمها القوميون السوريون ، أى الى توحيد سوريا الطبيعية وهى التى تضم فى نظر الحزب القومى السورى : لبنان والعراق وسوريا والأردن وفلسطين ثم قبرص • وسوريا الطبيعية عندهم هى التى يطلقون عليها اسم « الهلال والنجمة » •• والنجمة هنا هى قبرص ••

وتهدف هذه الدعوة الى احياء مجد الفينيقيين القديم ، ففينيقيا ـ كما أشرت فى المقال السابق ـ هى الفردوس المفقود عند القوميين السوريين ولذلك فكل حنين الشاعر ولوعته ودموعه •• كلها تتجه الى فينيقيا القديمة، انه يصلى من أجلها ويحرق البخور ، ويقدم القرابين لكى تتحول الى حقيقة حية • وهو يذكرنا فى هذا الموقف بالشاعر القديم الذى كان يقف على الاطلال يذرف الدموع ويكتب الشعر ، وأطلال أدونيس هى فينيقيا القديمة « المقدسة » •

وفى قصيدة طويلة بعنوان البعث والرماد يستمد الشاعر تشبيهاته ورموزه من فينيقيا •

فيقول مثلا :

أحلم أن شفتى جمرة
أخالها قرطاجة العصور
كل حجر شرارة
والطفل فيها حطب ـ ذبيحة المصير •

و « قرطاجة » هنا هى قرطاجنة « المدينة الكبيرة التى أقامهاالفينيقيون فى شمال افريقية » واتخذوها قاعدة لحضارتهم وهو هنا يتصور قرطاجنة حزينة متألمة كل حجر فيها شرارة ملتهبة وكل طفل فيها حطب خامدذلك لأنها فقدت مجدها وتألقها واحترقت عظمتها وهو هنا يدعوها ويحثها أن « تبعث » من جديد وتتألق •

وفى جزء آخر من القصيدة يصور حلمه بعودة فينيقيا ويتخيل هذه العودة السعيدة •• ثم يعود الى الواقع فيشعر بالحزن ويعبر عن هذا الحزن فى نوع من الندب والعويل :

فينيق (١) اذ يحضنك اللهيب
أى قلم تمسكه ؟
وحينما يغمرك الرماد ، أى عالم تحسه ؟ ••
وماهو الثوب الذى تريده ـ اللون الذى تحبه ؟

انه يخاطب « فينيق » كما لو كان شخصا حيا موجودا ، ثم يعودفيبكى عليه من جديد :

غربتك التى تميت يافينيق غربتى
لا أم فوق صدرك الموثق باختناقه

---

(١) يدعى « أدونيس » أن الفينيق هناليس فينيتيا القديمة ، ولكنه طائر اسطورى قديم .. وسنناقش هذا الادعاء فى المقالين الثالث والرابع من هذه السلسلة

لا أب يحييك حنو قلبه
غربتك ، الوحيد فيها .
غربة أى بطل يحترق .. يولد فيه الأفق ..

كل هذا حنين الى فينيقيا . ورغبة فى اعادتها الى الحياة وبعثها وانقاذها من الموت وتلك هى الثورة التى يحلم بها الشاعر والتى كان ظامئا ومتعطشا اليها انه يريد عملا سياسيا وفكريا شاملا يؤدى الى عودة الحضارة الفينيقية.

وقد أدرك الاستعمار قيمة هذه الفكرة فوقف وراءها وساندها ، فهى فى حقيقتها جزء من « الثورة المضادة » للقومية العربية انها تحاول أن تثير الشك فى سلامة الفكرة العربية والاشتراكية العربية ، وهذا هو الهدف الأول والأخير لهذه الفكرة الفينيقية ان الاستعمار ان لم يكن خالق هذه الفكرة فهو راعيها ومغذيها الى أبعد حد انه يريد أن يستفيد منها فى خلق جيل مشبع يوهم « الروح الفينيقية » كاره للوحدة العربية والقومية العربية لانهما يعبران عن اتجاه حقيقى صحيح .

ولنمض مع أدونيس قليلا .

فى هذه القصيدة نفسها نجد الشاعر يبحث عن شهيد للدعوة الفينيقية حتى تصبح دعوة مقدسة . فلا قداسة لدعوة بلا شهداء . ويجد الشاعر « شهيده » فى شخص أنطون سعادة حيث يقول عنه فى هذه القصيدة دون أن يذكر اسمه ومن المعروف أن أنطون سعادة قد حكم عليه بالاعدام فى لبنان وتم تنفيذ الحكم سنة ١٩٤٩) :

وأمس يافينيق مات واحد .
مات على صليبه ، خبا وعاد وهجه
من الرماد والدجى ، ناججا .
وها ، له اجنحة بعدد الزهر فى بلادنا
بعدد الأيام والحصى .
أحس جوعنا له فمات . مات باسطا .

جناحه محتضنا حتى الذى رمده •

فأنطون سعادة الذى دفع حياته ثمنا للعصابات التى كونها فى جبل لبنان هو الزعيم والشهيد المقدس عند أدونيس •

ان سعادة قائد عصابات حقيقية كانت تهدد أمن الناس وتقوم بدور قطاع الطرق وكان ظامئا للزعامة بل ومجنونا بالزعامة وقد أوصله هذا الجنون الى آن يجعل الايمان به شخصيا مبدأ من المبادىء الأساسية فى دستور الحزب وأصبح الاحتفال بعيد ميلاده فى فروع الحزب مثل الاحتفال بميلاد المسيح أو محمد ، لقد رفع نفسه الى مصاف العلماء والحكماء والزعماء وأخيرا دفع نفسه الى مصاف الأنبياء المقدسين •

ومن أجل هذا يبكى عليه أدونيس كما يبكى شهيد كبير ويإله من شهيد مغامر ليس فيه شيء مما يوحى بالشعر الحقيقى الأصيل •

كل هذه المقدمات والمواقف انتهت بأدونيس الى أن يكره العرب وارءاوبة كراهية عنيفة ، ولذلك فهو يتبنى كل مايوحى بابتعاده عن العروبة وسخطه عليها وبالاضافة الى غنائه النائح حول « فينيقيا » والى تسمية نفسه باسم « أدونيس » كرمز من الرموز التى يدعو القوميون السوريون الى احيائها بالاضافة الى هذا كله فقد سمى نفسه فى قصيدة أخيرة باسم « مهيار الدمشقى » ••• ومهيار هو شاعر رقيق من أصل فارسى • وهو صاحب القصيدة المشهورة التى يقول فيها :

وجمعت المجد من أطرافه •

نسب الفرس ودين العرب •

ويشبه أدونيس نفسه بمهيار على اعتبار ان مهيارا لاينتمى الى العرب •• انه من أصل فارسى وبذلك يتبرأ أدونيس من عروبته • ويعلن انه مثل مهيار • من أصل غير عربى والحقيقة أن مهيار كان أكثر فهما للحضارة من أدونيس فهو يعلم أن الفرس والعرب قد امتزجا امتزاجا كبيرا بعد الاسلام • واشتركا فى خلق الحضارة العربية الجديدة التى كان أبرز مثال لها هو دولة العباسيين ذات التاريخ المشرق المزدهر •• لقد كان

مهيار الحقيقي يفخر بأنه مزيج من الفرس والعرب • أمامهيار الكاذب ، فانه يرفض الاعتراف بشيء من هذا ، فهو فينقي ولابد للفينيقي في نظره ونظر الذين يستخدمونه أن يكره العرب ويقف منهم موقف العداء الكامل •

ويستمر أدونيس في انزلاقه حتى يصل آخر الامر الى الحقد على مصر وكراهيتها بعنف ذلك لأنها أصبحت مركزا للثورة العربية ، وأصبحت قوة قربت كثيرا احتمال تحقيق الوحدة العربية بعد أن كان الامر مجرد حلم بعيد المنال • وهو في شعره لايكف عن ترديد النغمة القائلة بأن المصريين فراعنة فهو يقول في احدى قصائده المنثورة :

« بلادي امرأة من الحمى جسر من اللذات يعبره الفراعنة وتصفق لهم حشود الرمل »

وهو يردد هذا المعنى كثيرا • ومن الطبيعي الا يرى في المصريين الا فراعنة مادام لايرى في السوريين الا فينيقيين وهو يريد من المصريين حسب منطقه أن يتوقفوا تماما للبكاء على الفراعنة القدماء وعلى مجدهم الكبير وأن يجعلوا من حياتهم مجرد حنين للعودة الى عصر الفراعنة •

تلك هي الدائرة الرئيسية المغلقة التي يدور فيها أدونيس أمير شعراء القوميين ـ السوريين والابن المدلل لأنطون سعادة والرجل الذي يعيش في لبنان تجري الاموال من بين يديه فيصدر المجلات والكتب الانيقة التي لايقرؤها أحد ، ويسافر الى باريس ويعيش كما أراد بل انه يجول بين أنحاء أوربا شهورا طويلة كل عام ثم يعود بعد ذلك ليتحدث عن الحزن والقلق والهموم •

ومن الطبيعي أن يعيش في هذا الجو القاتم الزائف لأنه أقام أفكاره على الايمان بوطن ضائع هو فينيقيا والايمان بمسيح جديد شهيد في نظره هو أنطون سعادة كما أنه مطرود من سوريا مما يذكي لديه العقدة التي خلقها لنفسه وغذاها منذ البداية عقدة الغربة عن الوطن والابتعاد عن الأرض التي ولد فوقها وتربى عليها • وهذا الطابع القاتم الكئيب هو الاتجاه العام لمجموعة الأدباء الذين يسمون أنفسهم بجماعة « شعر » •

القوميون السوريون والأدب

- ٣ -

الاتجاه النفسى العام لأدب القوميين السوريين هو رفض العالم الواقعى الذى نعيش فيه والحنين الى عالم جديد مختلف • ولا يمكن الاعتراض على هذا الموقف من حيث المبدأ ، فهو على العكس موقف ملىء بالغزارة والخصب وهو موقف يوحى للفنان الأصيل الصادق بالكثير من « الرؤى » العميقة الرائعة ، فلو نظرنا الى أدب تشيكوف مثلا ، وجدنا أن ذلك الفنان العظيم قد جعل أدبه وداعا بل رثاء لعالم قديم وحنينا الى دنيا جديدة وانسانية جديدة •

ولكن القوميين السوريين لم يقفوا هذا الموقف الاصيل الصادق بل هم أشبه فى الميدان الأدبى « بالتتار » ، هؤلاء الذين لايمكن أن يذكر عنهم تاريخ الحضارة أكثر من أنهم دعاة هدم وتدمير أولا وأخيرا •

ان القوميين السوريين هم جماعة يربطهم السخط على الواقع العربى المعاصر فهم يكرهون الصورة الراهنة لهذا الواقع • ويكرهون صورة المستقبل أيضا •

انهم لايريدون الوحدة العربية ولا يؤمنون بالثورة الاشتراكية ويشعرون أن الغرب حتى بوجهه الاستعمارى أقرب اليهم من العرب • ولقد حاول القوميون السوريون فى المرحلة الأولى من ظهورهم أن يخوضوا معركة صريحة ضد الثورة العربية ، ولكنهم فقدوا عطف الشعب ، وانعزلوا وأصبحوا مثل الجرح •• أقلية صغيرة تتحايل لنشر أفكارها ولاتجد لها جذورا فى أرضها فتمد يدها الى البلدان الاستعمارية وتستمد منها العون •

وقد أدت بهم عزلتهم عن الشعب العربى الى ان وقعوا فى أزمة عنيفة فهم ـ يعرفون مايريدون ولكنهم فى نفس الوقت لايجرؤن على

المصارحة الكاملة به ، مما قذف بهم فى عالم الأحزان والمخاوف والرموز ، عالم يمكن أن نسميه فى أحسن صورة بعالم شمشون ذلك الذى كان يقول :

على وعلى اعدائى يارب ...

والذى يقف مثل هذا الموقف . فيعادى أحلام شعبه ويحاول تحقيق أحلامه الخاصة على حساب مصلحة بلاده لابد أن تصبح رؤيته للعالم سوداية قاتمة لأنه يسير فى طريق مسدود تفرحه مصائب الملايين من أبناء شعبه وتؤلمه أى انتصارات يحققها هؤلاء الملايين .

وهناك نوع من الحزن العميق الذى يثير الاحترام والتقدير فقد كان الأنبياء والمصلحون مثلا يحزنون ، وأى قراءة متأنية لتاريخ محمد أو تاريخ المسيح سوف تكشف أن هذين النبيين قد عاشا نوعا عميقا من الحزن . ولكن أى حزن ؟ انه حزن أبيض . حزن الذى يحمل على كاهليه أعباء كبيرة ويلاقى عقبات هائلة ومع ذلك فهو يقاوم للنهاية حتى ينتصر لمبادئه وأهدافه .

ولكن هناك حزنا قاتما أسود ، ذلك هو حزن المقامر الذى يخاف الخسارة ويطمع فى الربح ، وحزن اللص الذى يعيش دائما فى احساس الخوف من العدالة .

وحزن القوميين السوريين من هذا النوع الأخير . انهم يقفون فى وجه الريح . فى وجه التطور التاريخى الصحيح للمنطقة العربية . ولذلك فليس أمامهم سوى اليأس والاختناق والجنون . وسواء كانوا مخدوعين فى الطريق الذى يسيرون فيه أو كانوا على علم ووعى به فهذه هى النهاية الحتمية الوحيدة التى تنتظرهم .

يقول أكبر شعراء القوميين السوريين (على احمد سعيد) (أو (أدونيس) كما يسمى نفسه وكما يسميه القوميون السوريون :

ياشمعة المستقبل البعيدة

مالى أخاف الطرق القصيرة .

والبيتان تصوير بارع لنفسية الشاعر ونفسية الادباء الذين ينتمون الى اتجاه القوميين السوريين ، ان عقدتهم الكبرى هى أنهم يكرهون الطرق القصيرة الواضحة الى الحقيقة ويبحثون عن الطرق الملتوية المنحرفة فقد أصبحت لذتهم الكبرى هى المغامرة هى لذة الاختفاء عند المجرم القاتل الذى يطارده القانون .

انهم ينفصلون عن الطريق المحدد الواضح الذى يسير فيه الشعب العربى كله ، ذلك هو طريق الثورة على الاستعمار الغربى وطريق الوحدة العربية ، وطريق الثورة الاشتراكية التى تعيد للمواطن العربى حقوقه وتعيد للوطن العربى مكانه فى الحضارة بدلا من تخبطه الراهن فى الفقر والتخلف .

وهم لايبتعدون فقط عن هذا الخط الواضح الملىء بالاحزان البيضاء الصافية والآمال الكبيرة ، بل على العكس يقفون فى وجه هذا الاتجاه ويعادونه عداء عنيفا انهم يقفون فى طابور الثورة المضادة للثورة العربية جنبا الى جنب مع الاستعمار واسرائيل والرجعية المحلية .

ولنقف معهم قليلا لنرى صورة من هذا الحزن الذى انتهوا اليه نتيجة لموقفهم من الثورة العربية .

ان « أدونيس » وهو أكبر شعرائهم من الناحية الفنية يعيد فى قصيدته الكبيرة « البعث والرماد » « أسطورة » فينيق ، الى الحياة ويتخذ من هذه الاسطورة رمزا كبيرا لافكاره السياسية .

ماذا تقول الاسطورة ؟

ان الفينيق هو « طائر خرافى كان يعيش قروناطويلة وسط صحارى الجزيرة العربية وكان اذا أحس دنو أجله بنى عشه بغصون يعرضها لحرارة الشمس ثم يحرق نفسه حيا فى هذا العش ثم تتكون من رماده شرنقة تنشق عن « فينيق » جديد يحمل بقايا أبيه الى هيكل الشمس » .

أى أن الفينيق طائر يحرق نفسه ليعود الى الحياة من جديد .

والفينيق فى هذه الأسطورة أشبه بالطائر المعروف فى الأساطير العربية القديمة باسم « العنقاء » ••

وأدونيس يستخدم هذه الأسطورة ليؤكد بها المعنيين التاليين :

أولا : ـ الموت والاحتراق فقد مات فينيق واحترق •

ثانيا ـ البعث والتجدد فقد بعث فينيق وتجدد وهو يقف طويلا عند المعنى الأول معنى الموت والاحتراق فيملأ قصيدته بالعويل والدموع ثم أخيرا يدعو الى التجدد والبعث من خلال رماد الحريق •

ويحاول الشاعر أن يقنعنا أنه يتحدث عن المعانى المجردة أى عن الطموح الى الحياة والتجدد ولكن الحقيقة انه يرمز بهذه الأسطورة الى فكرته السياسية وهى عودة الحضارة الفينيقية الى سوريا فهى حضارة قد ماتت واندثرت وهو الآن يدعوها الى الحياة لتعود من جديد •

ولماذا تعود لكى تخلص السوريين من النزعة العربية لكى تقف فى وجه الصورة العربية وتقضى عليها •

يقول الشاعر :

فينيق تلك لحظة انبعاثك الجديد •
صار شبه الرماد صار شررا ولهيبا كواكبا •
والربيع دب فى الجذور ، فى الثرى •
أزاح رمل أمسنا العجوز والثلاثة :
الركام والفراغ والدجى •

والى جانب هذه الأسطورة التى يكشف فيها عن أفكاره بصراحة ووضوح نجد أنه يواجه الحياة بشعور قاتم منقبض أسود يقول فى احدى قصائده المنثورة :

« أيتها الجثة العائمة ياحياتى »

ويقول فى قصيدة نثرية أخرى :

« لكننى يائس ياأمى يائس وليس من موت ، غريب ولا ذراع حولى

والغربة سيف يقطع الوجه واليأس هلاك طالع والشر فى طفولته ، واليأس وحده جدير بالحب ... ليس فى بلادى مايطمئن الفراشة ليس فى بلادى غير غربان افريقية الجائعة ... »

وهو يقصد المصريين بقوله « غربان افريقية » اذ ينظر ذلك الشاعر الى أى ارتباط بين عرب مصر وعرب الشام كما لو كان هذا الارتباططعنة موجهة الى قلبه .. فأى رأى سياسى أوضح من هذا وأى شعور حاقدأبعد من هذا الشعور ؟

ويقول فى جزء آخر من القصيدة المنشورة :

« يائس وليس من موت ، تائه أكره الهداية عينى مليئة بالكذب ، والشك يكسو قشرة الأرض وليس لى قدم فى موطن الوحل » .

هذه صورة من اليأس الأسود القاتم الذى يملأ نفسية القوميين السوريين هؤلاء الخوارج على الثورة العربية والذين يفزعون من امتدادها وانتصارها ويضمرون لها أسوأ المشاعر ويقتاتون من خبز أعدائها على الدوام .

وليس أدونيس وحده هو الملىء بهذه المشاعر السوداء فكل أدباء القوميين السوريين يجمعهم هذا الاتجاه الأسود .

تقول خالدة سعيد احدى أديبات القوميين السوريين الذينيتجمعون ويتركزون فى مجلة « شعر » التى يصدرونها فى لبنان .. تقول هذه الأديبة :

« أليس الرعب سيد بلادنا والموت توأم كل منا والمرض بطانتنا ؟ »

وتقول فى حقد على الثورة العربية .

« الجثث المحنطة وقود الثورة »

وتقول أيضا :

(باسم الحرية الزائفة والوطنية الغبية يطمن الأحرار فى الظلام ،

وهى هنا تلمس قضية يرددها القوميون السوريون دائما وهى أن الثقافة عالمية لاوطن لها وأن هؤلاء الذين يدعون الى المحافظة على الثقافة العربية هم دعاة « الوطنية الغبية » وتحت أستار دعوة الثقافة العالمية تنشر هذه المجموعة أفكارها السوداء المنحرفة وكأن عالمية الثقافة معناها كراهية الوطن والحقد عليه ...

تقول هذه الأديبة أيضا :

« النفى » الغربة .. الحرمان . الاضطهـــاد اللامنطقى . عبودية الزمان والمكان الموت الفاجع تلك هى رايات عصرنا فليرفع اليأس لواءه ويرقص الرعب فى كلمات الشعراء) .

وقد سمعت أن خالدة سعيد هذه هى زوجة أدونيس وعلى كل حال فهى ان لم تكن زوجته فى الحياة فهى بلا شك رفيقته فى التفكير والشعور لأنها تصدر فى كتابتها عن نفس المنبع الروحى القاتم .

وقد اختار « أنسى الحاج » أحد هؤلاء الادباء كلمة « لن » عنـــوانا لكتاب من الشعر المنثور . فقد وجد فى هذه الكلمة ما يعبر عن رفضـــه للواقع وتمرده عليه ومن أقوال هذا الكاتب :

« أرى الطوفان خلاص البر ... »

انه لايريد سوى الخراب والهدم الكامل للعالم الذى يعيش فيه ، يريد طوفانا يغرق هذا العالم . ومن اقوال هذا الكاتب أيضا « ندفن اللحم ولا نبكيه ندفن اللحم ولا نعرفه .. ندفن اللحم ونأكله ، نأكل اللحـــم ونبصقه .. نبصق اللحم ونزرعه » .

وبصرف النظر عن تفاهة مافى هذه الكلمات من أفكار الا أنها تفوح مع ذلك برائحة وحشية تنبع من تلك النفسية القاتمة التى يعيش بهـــا هؤلاء القوميون السوريون حيث لايرون ـ أمامهم الا القبح والحرائق ، والدمار والعفن .

وقد عرف لبنان منذ ١٥ سنة تقريبا أديبا موهوبا هو سعيد تقى الدين

حيث أصدر عددا من المسرحيات والقصص القصيرة وكان يبشر بمستقبل أدبي كبير .

وفجأة انضم الى القوميين السوريين وترك أدبه وفنه وعاش في جو غريب ، حصن بيته بالمدافع وأخذ يتصور أنه مهدد بالقتل في كل لحظة واعتبر نفسه زعيما كبيرا ووارثا لعقيدة أنطون سعادة زعيم القوميين السوريين وعاش عدة سنوات بلا انتاج فني بعد أن فقد اتزانه العقلي والروحي .. ثم مات منذ سنتين وهو على حافة الجنون . ذلك هو طريق القوميين السوريين في الأدب ..

جو قاتم سوداوي ، لاينبع من فلسفة انسانية عميقة ولا يقود الى غاية نبيلة ، ولا يلتقي مع جماهير الشعب أو اتجاه التاريخ في معركة واحدة : والنتيجة بالطبع هي هذا الحزن الغامض الذي لاعلاقة له بالاحزان الحقيقية التي يشعر بها الناس ، ومن نتائج هذا الطريق أيضا التآمر في الظلام كما حدث في الانقلاب اللبناني الأخير الذي انتهى بالفشل ، والتعاون مع الاجنبي .. والحياة في أحلام مفزعة مرتبكة تقضي على صاحبها في نهاية تشبه نهاية سعيد تقي الدين .. ذلك الذي بدأ أديبا موهوبا وانتهى انسانا فقد عقله ونفسه .. وحياته ..

ولا أحب أن أنتهي من هذه الدراسة دون أن أؤكد أن من بين أفراد هذه الجماعة من أدباء القوميين السوريين جماعة من المخدوعين الذين لا يدركون خطورة الاتجاه الذي يسيرون فيه ، وبامكان هؤلاء أن يعودوا الى طريقهم الصحيح . ان الهدف الأول والأخير لجماعة مجلة « شعر » ، وهم أدباء القوميين السوريين هو خلق تيار ثقافي وأدبي منعزل فالاقلام القوية التي كانت بامكانها ان تعبر عن قضية فلسطين وتدافع عنها وتعبر عن الثورة الاشتراكية العربية وتدافع عنها .. كل هذه الاقلام يجب أن تنصرف تماما الى ذلك الجو القاتم الخانق من الأحزان الغامضة ،

أو تنصرف الى البحث والتعبير عن الأساطير التى تخدم فكرة (ســـوريا الفينيقية » ، مما يخلق اتجاها فكريا ، معاديا للعروبة •

ولا يمكننا فى هذه المرحلة التى نمر بها أن ننظر الى هذا الاتجاه نظرتنا الى اتجاه فكرى ثقافى حر •• فالشعب الذى يعيش فى ثورة يجب أن يعرف دائما موضع قدميه ، ويجب أن يعرف أعداءه ويفهمهم تمـــام الفهم •

القوميون السوريون والأدب

- ٤ -

لست من المتحمسين لنقد الشعر على أساس سياسى ، فهذا الاتجاه فى الأدب يؤثر كثيرا على القيمة الفنية للانتاج الأدبى ، ولكننا مع ذلك لايمكن أن نتجنب هذا الموقف فى اللحظة التاريخية الراهنة التى يعيشها وطننا العربى ففى هذا الوطن الجريح من كل جانب ، تتصارع الافكار والتيارات ، وكاتب هذه السطور مؤمن مع آلاف المواطنين العرب ، بأن طريق الخلاص لوطننا العربى هو طريق القومية العربية وطريق الاشتراكية فى الوقت نفسه ، والقومية العربية والاشتراكية هما الجناحان اللذان تطير بهما الثورة العربية وتنطلق لتحقيق أهدافها فى تغيير الواقع الاجتماعى والفكرى لقلب حضارتنا بوجهيها المادى والمعنوى .

وأى تأمل لواقعنا العربى الراهن يكشف أن الثورة العربية تواجه ثورة مضادة ، ولهذه الثورة المضادة عدد من الكتائب المختلفة من الناحية الشكلية ، والتى تتفق فى النهاية اتفاقا كاملا من ناحية الغاية والهدف ، والقوميون السوريون هم جزء من الثورة المضادة للثورة العربية ، هم كتيبة من الكتائب الكبرى فى جيش هذه الثورة ـ المضادة .

وبعد ما كتبت المقالات السابقة فى جريدة « أخبار اليوم » ، تلقيت عدة رسائل تهاجمنى أشد الهجوم على هذا الموقف . وحسبى هنا أن أشير الى اعنف رسالة تلقيتها ، وكانت بتوقيع « احمد مهدى الامام » ، ويدعى الكاتب أنه عراقى ، رغم اعتقادى أنه من جماعة مجلة « شعر » المعروفين فى لبنان ، وأن الاسم « مخترع » لتغطية الاسم الحقيقى لصاحب الرسالة .

يقول صاحب الرسالة وأنا أنقل الرسالة هنا بالنص :

« صدفة وقعت بين يدى ، وأنا أقوم بزيارة لبيروت نسخة من جريدة

أخبار اليوم وفيها مقال نقدى عن الشاعر أدونيس أمير شعراء القوميين السوريين • مالى وللحزب فانا لست من مؤيديه ، أما الشـــاعر أدونيس فقد استغربت أن يسوق قلمك اللامع عادة هذه التهم المجـــوفة بحق ، ويشهد الله أننى كنت فى المقهى حين قراءتى للمقال ـ فما تمالكت نفسى من الضحك العلنى والقهقهة حتى الامر « كذا فى الرسالة » الذى جعل نادل المقهى يستوضحنى عن سبب هذه الضحكة العالية التى أسقطت طقم أسنانى من فمى وتحطم على الأرض بينما كان الآخرون يسقطون فى ذهول تام • وقلت للنادل : ياللغباء ، أتعرف ماهو الفينيق ؟ فأجابنى وهو على قسط من العلم : بأنه طائر أسطورى يحترق عندما يهرم ليتجدد ويبعث حيا من رماده •

وازداد عجبى ، نادل المقهى يعرف ماهو الفينيق والناقد رجاء النقاش لايعرفه •• يظنه فينيقيا • لله ما أوسع مجهولات السيد رجاء ، وعندما علم النادل بالامر قال لى : لاتستغرب ياسيدى فقد تساءل احد رجالات مصر الـكبار ذات مرة فى أية معركة استشـــهد اللواء اســـكندرون (واللواء اسكندرون ياسيدى لمعلوماتك هو جزء سلخ من سورية وضم الى تركيا • وأضاف النادل : ومرة كتب كمال الملاخ عن القائد الاســـــبانى العظيم هانيبال !

لقد تألمنا ياسيدى أن يقع المســـئولون عن رعاية الفكر والأدب فى عالم العروبة بمثل هذا الجهل الفاضح • وازدادت رغبتى بعد مقالك فى التعرف الى هذا الشاعر أدونيس الذى نقيم له فى العراق أهمية عالية جدا وربما سندعوه لزيارتنا حيث يسمع بعض شـــعره وهو ياســـــيدى مع اعترافك بموهبته يعتبر طليعة شعراء العالم العربى ـ والشاعر الوحيـــد تقريبا الذى استطاع أن يجعل من الأدب العربى على مستوى العالم وهـــو أيضا فى رأيى أعظم ثلاثة شعراء أنجبهم تاريخنا على مر العصور •• : أحدهم مات طفلا ، قبل أبى العلاء ، والآخر لم يولد بعد •• (١)

ويحلو لى أن أشبه خطيئتك المميتة هذه بذلك الخطأ الذى ارتكبه تلميذ ابتدائى عندما قال لأستاذه :

(١) يقصد صاحب الرسالة بهذه العبارة ان ادونيس هو اعظم شاعر عربى!

« الحسن والحسين بنات معاوية » فاستغرب الأستاذ وقد صحح له :

أولا ــ الحسن والحسين لا الحسن والحسين .

ثانيا ــ أولاد وليس بنات

ثالثا ــ على وليس معاوية

أرجو أن تبقى سيدى ذخرا للأدب العربى ... وأرجو أخيرا أن يتروى اخواننا المصريون فى المسائل الفكرية والادبية على الاقل بحيث لايتعرضون لها وهم محششون أو محششات ــ أحمد مهدى الامام » .

هذا هو نص الرسالة التى وصلتنى من صاحب التوقيع والذى أعتقد كما قلت أنه توقيع زائف لواحد من مجموعة مجلة شعر المعروفين . وقد حرصت أن أنشر هذه الرسالة كاملة لكى يرى القراء العرب صورة أخرى من أخلاق هؤلاء القوميين السوريين ونفسيتهم المليئة بالحقد والمرارة والضيق بكل من يحاولون فهمهم وكشفهم على حقيقتهم .

والرسالة لاتحمل أية وجهة نظر موضوعية وانما تعتمد على تسقط بعض التهم الجزئية الهزيلة وترديدها ضد كاتب هذه السطور وضد العرب المصريين على وجه العموم لم يحاول صاحب الرسالة أن يناقش فكرة واحدة من الأفكار التى عرضتها فى « أخبار اليوم » لأنه هو وأمثاله لايطيقون المناقشة الموضوعية ويهربون منها الى ترديد تفاهات .. لاتغنى شيئا أمام حقائق تدمغهم وتدينهم . فلم يستطع صاحب الرسالة أن يقول شيئا حقيقيا يدافع به عن أدونيس .

واذا حاولت أن أحدد نقطة موضوعية واحدة فى هذه الرسالة فهذه النقطة الوحيدة هى الفرق بين فينيقيا والفينيق فى قصيدة البعث والرماد لأدونيس .

والواقع أننى قرأت القصيدة جيدا ، وقرأت التفسير النقدى الذى قدمته خالدة سعيد زوجة أدونيس « للفينيق » ذلك الطائر الاسطورى وقد أشرت الى هذه الأسطورة فى القسم الثالث من دراستى لأدب القوميين السوريين وذلك قبل أن تصلنى هذه الرسالة بفترة طويلة .

ولكننى مع ذلك أعتقد أن المعنى الاساسى فى قصيدة أدونيس هو المعنى السياسى ، معنى الحنين الى فينيقيا والدعوة الى بعثها وتجديدها ولو حلف لى أدونيس ـ وأصحابه على القرآن والانجيل والتوراة أنهم يقصدون مجرد معالجة فنية للاسطورة لقلت لهم أنتم كاذبون كعهدنا بكم دائما ، ولن أقول هذا عنادا منى واصرارا على رأى لاتؤيده البراهين بل سأقوله استنادا الى شيئين :

أولا : النص الفنى لقصيدة البعث والرماد .

ثانيا ـ وجهة النظر العامة التى يبثها أدونيس فى شعره وفى كتابته النثرية ويرددها معه أدباء مجلة شعر .

فاذا عدنا الى قصيدة البعث والرماد وقفنا أمام المقطع الاول لنجد أدونيس يقول :

أحلم أن فى يدى جمرة .
آتية على جناح طائر .
من أفق مغامر .
أشم فيها لهبا هياكليا .
ربما لصور فيها سمة امرأة
يقال صار شعرها سفينة
أحلم أن شفتى جمرة
اخالها قرطاجة العصور
كل حجر شرارة
والطفل فيها حطب ـ ذبيحة المصير
مثل قبس ان لم يضىء يموت
آه ، آه رئتاى جمرة .
يخطفنى بخورها ، يطير بى لموطن
اعرفه أجهله ..

يشير الشاعر فى هذا المقطع الى ثلاثة أشياء :

أولا : ـ مدينة صور

ثانيا : ـ مدينة قرطاجنة وحريقها المشهور الذى أشعله الرومان فى تلك المدينة بهدف القضاء عليها وتحطيمها ..

ثالثا : ـ شخصية امرأة معينة ولن تكون هذه المرأة بحكم السياق الفنى للقصيدة سوى اميرة « صور » ابنة ملك « صور » بعد ان هربت من مدينتها الاولى لتقيم مدينة قرطاجنة التى اصبحت مركزا ضخما لحضارة الفينيقين وتجارتهم ..

وهذه الأشياء الثلاثة التى يشير اليها الشاعر فى الجزء الأول من قصيدته هى أجزاء هامة من تاريخ فينيقيا والفينيقيين .

يقول ويل ديورانت فى كتابه قصة الحضارة « الجزء الأول » من المجلد الثالث » :

« تعزو الروايات القديمة انشاء هذه المدينة ـ أى قرطاجنة ـ الى أليسا ابنة ملك صور ، فتقول ان أخاها قتل زوجها فأبحرت مع طائفة أخرى من المغامرين الى أفريقية وسمى المكان الذى استقرت فيه باسم كارت هدشت أى المدينة الجديدة والذى تحول بعد ذلك الى اسم « قرطاجنة » وهاجر كثيرون من سراة أهل صور الى افريقية واستقر معظمهم فى قرطاجنة فأصبحت بسبب هذه الهجرة مركزا جديدا ـ للتجارة الفينيقية وأخذت قوة قرطاجنة وعظمتها فى الازدياد كلما أخذت صور وصيدا فى الاضمحلال .

الا يعطينا هذا دلالة أكيدة على أن الشاعر قد ربط بين أسطورة « الفينيق » وبين فينيقيا ربطا واضحا ، وأنه فى الحقيقة انما يهدف الى تأكيد المعنى التاريخى السياسى وأن أسطورة طائر الفينيق ليست الا ستارا خارجيا شفافا يخفى تحته المعنى السياسى الذى يريد أن يقوله ؟ ماعلاقة طائر الفينيق بمدينة صور القديمة .. مركز الفينيقين القدماء ؟

ما علاقة طائر الفينيق بمدينة قرطاجنة مركز الحضارة الفينيقية المزدهرة والمدينة التي جعلت من الفينيقيين « انجليز العالم القديم » كما يسميهم المؤرخون المعاصرون ؟

ما هي علاقة طائر الفينيق بحريق قرطاجنة الذى دمرها وقضى عليها ؟ .. صحيح ان طائر الفينيق كما تقول الأسطورة يحترق ليبعث من جديد .. ولكن الا يدل هذا على أن الشاعر قد قصد الى التطابق المباشر بين الواقع التاريخى لمدينة قرطاجنة والواقع الأسطورى لطائر الفينيق ؟ فقرطاجنة قد احترقت لتعود من جديد كما يحترق الطائر ليعود من جديد ؟

أليست هذه كلها دلائل مستمدة من قلب القصيدة تؤكد أن المعنى الأساسى هو المعنى الحضارى والسياسى وليس هو المعنى الأسطورى فقط كما يقول صاحب الرسالة الصغير ؟

وعندما يقول أدونيس في هذا الجزء من القصيدة أيضا :

آه ، آه رئتاى جمرة .

يخطفنى بخورها يطير بى لموطن

أعرفه أجهله ..

عندما يقول ذلك فهل يسمح صاحب الرسالة الصغير بأن يقول لنا الى أى وطن يحن شاعره أدونيس ؟ هل يحن الى سوريا التى طرد منها لانه قومى سورى صريح ؟ هل يحن الى الوطن العربى المجزأ المنقسم المجروح الذى لم يقل فيه كلمة حب واحدة وهو الذى يقول الشعر منذ مايقرب من خمس عشرة سنة ؟ بل وهو الذى ملأ شعره تنصلا من العروبة وحقدا عليها ؟

الى أى وطن يحن هذا الشاعر ان لم يكن الى فينيقيا وسوريا الكبرى وغير ذلك من المشروعات التى يحلم بها ويتبناها القوميون السوريون ؟ انى أتمنى أن يكشف صاحب الرسالة عن وجهه ويجيب بعلمه الغزير على كل هذه الأسئلة ؟

فى الجزء الرابع من القصيدة يقول الشاعر :

نيراننا جامحة الأوار كى يولد فينا بطل ..

وفى نفس هذا القسم الاخير من القصيدة يعود فيقول :

... آه خلنى لمرة أخيرة

أحلم أن رئتى جمرة

آتية على جناح طائر

من أفق مغامر

وخلنى أشم فيها اللهيب الهياكلى

ربما لصور فيها سمة

وربما تجسدت قرطاجنة :

دقائق الغبار فيها لهب

بلى ، بلى ، حتى الغبار لهب

والطفل فيها حطب ذبيحة المصير

مثل قبس ان لم يضىء ، يموت ، لايكون

آه خلنى لمرة أخيرة

أحلم أن رئتى جمرة

يأخذنى بخورها يطير بى

لموطن أعرفه أجهنه

ان المدينة الجديدة التى يحلم بها الشاعر ليست هى الجزائر الثائرة التى قدمت فى سبع سنوات مليونا من الضحايا ، وليست هى بورسعيد التى تلقت على صدرها آلاف الاطفال والشباب والنساء والرجال قتلوا كلهم فى ،معركة أليمة حزينة ، ليست هذه هى المدينة الجديدة التى يحلم بهـا

أدونيس ، ولكن مدينة أحلامه هى قرطاجنة وليس البطل الذى يحلم به هو عبد الناصر او بن بيللا أو غيرهما من أبطال العرب ولكن بطله هو بطل القوميين السوريين ولا شيء غير ذلك ..

أبعد هذا كله يمكن أن تكون أسطورة طائر الفينيق هي « جوهر » قصيدة البعث والرماد لادونيس ؟ اننا لسنا مجموعة من السذج لنصدق هذا ونسلم به ، فالحقيقة تكشف نفسها من بين سطور أدونيس . فما أسطورة طائر الفينيق الاحجة فنية خارجية يلجأ اليها أدونيس ليخفى أمله الحقيقى المنشود في جو أسطورى : وما هذا الامل الا عودة فينيقيا الى الحياة وانتصارها على الحريق التاريخى القديم .

وعندما قلت ان أدونس ينادى فينيقيا فى قصيدته لم أكن أجهل الأسطورة التى أشار اليها صاحب الرسالة الصغير وانما كنت أدرك تمام الادراك أن هذه الاسطورة انما هى حجة زائفة للوصول الى الهدف السياسى الذى يقصد اليه الشاعر لان النتيجة البعيدة تكشف نفسها لكل من يحاول أن يقرأ هذه القصيدة بشيء من التأنى أو الانتباه .

ولا يمكن لأحد أن يعترض على استخدام الاسطورة فى الشعر ، فمثل هذا الاستخدام اذا تم على يد شاعر موهوب فانه يدفع الشعر الى أعماق بعيدة ويجعل منه عملا فنيا غنيا بمادته يقف أمامه الانسان طويلا ويتأمله،وهذا الاتجاه يدفع الشعر العربى بالذات الى آفاق جديدة خصبة، لم يعرفها تاريخنا الادبى لان الشعر عندنا قد وقف فى تاريخه القديم عند حدود الشعر الغنائي ولم يتعدد هذه المرحلة ، ولا شك أن أدونيس يحاول هذه المحاولة ولا شك أنه شاعر موهوب قادر ، ولكن أدونيس لايستطيع أبدا أن يصل الى « الصدق الفنى » لانه يستخدم الاساطير لغرض آخر غير فنى هو التعبير عن شعوره العدائى نحو القومية العربية بطريقة ايحائية خفية والتعبير عن ايمانه بأفكار القوميين السوريين عن الحضارة الفينيقية وعودة الحضارة الفينيقية .

وقصيدة « البعث والرماد » ليست الا نموذجا من محاولات أدونيس

لاخفاء مشاعره الحقيقية وللتعبير الملتوى عن المعانى الاساسية التى يريدها ويدعوا اليها ، انه يريد أن يقول شيئا معينا ولكنه لايجرؤ على الجهر بهذا الشيء ، ولذلك تخرج قصائده مرتبكة مليئة بالضباب وهذا هو مانسميه « بعدم الصدق الفنى » ولكن رغم هذا الارتباك فان شعر أدونيس يكشف عن مقاصده الحقيقية وأفكاره المختفية •

ووجهة النظر العامة لادونيس تؤكد أنه يرمى الى احيـــاء أفكار القوميين السوريين بهذه القصيدة وبغيرها من القصائد ، فقد اختـــار لديوانه الاخير عنوان مهيار الدمشقى ولماذا اختار اسم « مهيار » ان لم يكن يرمى بذلك الى تشبيه نفسه بشخصية « مهيار الديلمى » الشاعر الفارسى الأصيل ؟ ان دلالة هذا الاسم هى أن أدونيس يريد أن يقول لنا انه ليس من أصل عربى وانه ينتمى الى أصل آخر كما كان مهيـــار ينتمى الى الفرس •

هل يريد صاحب الرسالة أن يقول ان مهيارا هو أيضـا نوع من الطيور أو الحيوانات ؟ ان صاحب الرسالة يعرف كما يعرف أدونيس تماما أنهما يحملان فى رأسيهما أفكار القوميين السوريين المعـــادية للعروبة والقومية العربية • ولست بذلك أريد أن أحرج أحدا ، أو أن أتهم أحدا فأنا اول من يتمنى أن يعود شاعر موهوب مثل ادونيس الى نطاق التفكير العربى الصحيح هذا التفكير الذى يتفق تماما مع مصـــــلحة كل مواطن عربى ••• مصلحة حاضره ، ومستقبله ••• والذى يتفق مع آمالنا فى خلق حضارة قوية قائمة على أسس عصرية فى المنطقة العربية •• وخلق ثقافة عربية عالمية تقف جنبا الى جنب مع أية ثقافة عالمية متقدمة ••

ولست أريد أن أقطع فى المستقبل برأى ولكننى مع ذلك أحس أن أدونيس وأصحابه من أمثال كاتب الرسالة قد باعوا انفسهم للشـــيطان وأصروا على الوقوف فى وجه آمال شعبهم وأمانى هـذا الشعب وملأوا أنفسهم بمشاعر الغرور والتعالى والحقد ، ولم يعد ـ باستطاعتهـــم أن يعترفوا بضرورة السير فى الطريق الصحيح •

وليس أمامنا الا ان نعرف ماذا يقولون وماذا يريدون لكى نتجنب

أخطارهم فهم لو استطاعوا لاحرقوا الوطن العربى مثلما أحرق الرومان قرطاجنة ••• وكما أحرق نيرون روما وهو يضحك وقد عجزوا عن أن يحرقون المدن والقرى ولذلك فهم يملأون الحروف والسطور حرائق وهم يشعلون فى هذه الحرائق كل ما آمنت به الامة العربية فى معركتها الراهنة وكل ما تضمه هذه الامة العظيمة فى صدرها من عقائد وأحلام •

وكل محاولة للفهم هى اطفاء لحرائقهم ، ولذلك فمحاولات الفهم بالنسبة لهم شىء أليم مزعج ، وهم لايملكون أن يكونوا واضحين او أن يناقشوا الامور بطريقة موضوعية ، ولذلك فهم يلجأون الى أمثال تلك التهم التى وجهها صاحب الرسالة التى قدمت نصها فى هذا المقال •

ان هناك شيئا كبيرا يربط بين القوميين السوريين ذلك هو الحقد على مصر ، ومحاولة خدشها والتقليل من قيمتها • لماذا ؟ ان انضواء مصر تحت الراية العربية قد بدأ يغير اتجاه الريح بالنسبة للقضية العربية الكبرى ولم يبق مكان لدعاة الفينيقية ولدعاة الفرعونية لأن الأمة العربية أحرص على تراث الفينيقيين والفراعنة من هؤلاء الدعاة الزائفين الذين يقفون فى ذلك الطابور الهزيل أمام السفارات الأجنبية المرتجفة من المد الثورى العربى •

انهم يحقدون على مصر لان أهلها « الحشاشين والحشاشات » ــ كما يقول صاحب الرسالة الصغير ــ يعيشون الآن فى القرن العشرين ويتخطون عصور التخلف التى يعيش فيها صاحب الرسالة وأمثاله ••ان الحشاشين والحشاشات ، يصنعون معجزة السد العالى ، ومعجزة الجيش العربى ومعجزة الصناعة العربية المستقلة لأول مرة فى التاريخ العربى ، وهم الذين يدخلون التجارب العظيمة بجرأة واقدام وينجحون بلا غرور ويفشلون بلا مرارة لأنهم قرروا أن يقوموا بدورهم فى طليعة الثورة العربية ، هذا الدور الذى يحتاج الى الكثير من التضحيات والآلام ، ولقد قرر « الحشاشون والحشاشات » أن يدفعوا هذه التضحيات ويتحملوا هذه الآلام لكى تعود فلسطين وتنتصر الجزائر ويسترد العرب لواء الاسكندرونة ولكى لايبقى فى الوطن العربى العظيم كلاب صغيرة تنبح يمزقها الحقد

وتقتلها المرارة وتفرز كل يوم‌مشاعر سوداء فى شكل سخرية ثقيلة الظل واتهـام بالجهل يوزعونه على الناس وأصحاب هـــذا الاتهام غارقون فى جهل روحى لانهاية له ، رغم التشدق ـ بأسماء الاساطير القديمة والحديثة والسهر فى كباريهات باريس وروما وبيروت •

ان الذى يتحكم فى هذه الكائنات هـــو الفزع من زيادة الوعى العربى فى مصر ، ومحاولة التقليل من أهمية هذه الظاهرة الهـامة فى ثورتنا العربية •• وهى أن مصر تقطع كل يوم مراحل ضخمة فى اتجاهها العربى الصحيح ولكن التاريخ يتحرك فى عكس ـ الاتجاه الذى يتمناه الخوارج على الثورة العربية من اعدائها الصرحاء والمستترين •

ذوبان الجليد

قرأت أخيرا نص الخطاب الذى ألقاه الفنان والفيلسوف الفرنسى الكبير جان بول سارتر فى مؤتمر نزع السلاح الذى انعقد فى موسكو فى شهر يوليو ١٩٦٢ وقد كان هذا الخطاب وثيقة اتهام خطيرة للصراع بين الكتلتين الكبيرتين فى الميدان الثقافى .

وأى عربى يقرأ هذا الخطاب الجرىء المخلص يشعر بالرضا العميق عن اتجاهنا الحيادى الذى انعكس فى الميدان الثقافى ، وحررنا تماما من الوقوع تحت تأثير الصراع الثقافى بين الكتلتين .

لقد دعا سارتر دعوة صريحة الى نزع السلاح الثقافى ، ودعا الى الحياد الثقافى ومعنى هذه الدعوة بصورة أخرى هو اخراج الثقافة تماما من ميدان الحرب الباردة ، بحيث يتاح للانسان فى كل مكان من العالم أن يعرف كل نتائج العقل البشرى دون سدود أو قيود . وبذلك وحده تعود الثقافة الى طابعها العالمى الانسانى الاصيل . وتنتهى الظواهر المؤسفة التى نراها كل يوم فى ميدان الثقافة .

لقد ضرب سارتر مثلا بموقف الروس من الاديب التشيكى الكبير « كافكا » ، ان المثقفين الروس لايعرفون شيئا عن هذا الأديب ، برغم قيمته وأهميته الكبرى فى ميدان الادب العالمى المعاصر . لقد اعتبره الروس — بدون مناقشة ولا مراجعة — أديبا معاديا للاشتراكية وللشيوعية وعاملوا أدبه على هذا الاساس ويؤكد سارتر أن الروس أخطئوا كل الخطأ فى هذا الموقف ، « فكافكا » أديب انسانى عظيم ، كان يشعر بالضيق الذى أحس به فى ألمانيا حيث عاش معظم حياته بعد الحرب الاولى ، وفى بداية ظهور النازية ، وكان يعبر عن مشاكل انسانية عميقة صادقة .

والحقيقة أننا لو فكرنا فى المشاكل الجزئية والعامة التى ظهرت فى الثقافة العالمية نتيجة للحرب الباردة ، لوجدنا مواقف عدة أكثر من جهل الروس بأدب كافكا وشخصيته .

فمما لاشك فيه أن المواطن الامريكى العادى قد يكون لديه مايمكن أن نسميه بالعقدة الروسية ، انه يخاف روسيا ويخشاها ويشعر نحوها بالكره العنيف ، ونفس الموقف فى روسيا ودول الكتلة الشرقية ، هناك عقدة الخوف من أمريكا وكراهيتها وتوقع الشر من جانبها . ولاشك أن هذه العقدة النفسية لها جذور عميقة فى الانظمة الاجتماعية المختلفة ولكن الحصار الثقافى يلعب دورا خطيرا فى هذا الميدان .

ان أمريكا لاتشاهد الأفلام الروسية تقريبا ، وروسيا لاتشاهد الأفلام الامريكية تقريبا : كما أن روسيا لا تعرف أديبا غربيا كبيرا مثل كافكا ، فان الامريكان لايكادون يعرفون أديبا روسيا كبيرا مثل جوركى . وخلال نصف القرن الاخير لم يزر أمريكا من أدبا روسيا سوى ثلاثة أدباء معروفين هم جوركى واهرنبج وشلوخوف . ولم يزر روسيا من أدباء أمريكا سوى عدد قليل آخر من هؤلاء الأدباء ، وبعد موت ستالين . فكيف يمكن أن يتم التقارب والامتزاج والقضاء على العقد الموجودة بين هذين البلدين الكبيرين ، ان ذلك لن يتم الابكفاح طويل ، وبوسائل أساسية على رأسها اذابة الجليد الثقافى بين البلدين الكبيرين ، وبين الكتلتين المتصارعتين فالثقافة وحدها هى التى تخلق التقارب بين العقل والضمير فى أنحاء العالم ، وهى وحدها التىتفرش الطريق الصحيح لحل كثير من المشكلات التى يجب حلها من أجل الانسان والحضارة .

ولقد بلغ تأثير الحرب الباردة حدا أفسد الكثير من القيم العالمية فى ميدان الثقافة فجائزة نوبل المشهورة ، كان المفروض أن تنأى عن هذا الميدان ، وأن تقوم بدورها فى خدمة الثقافة ، لا فى الاسهام فى

اشعال الحرب الباردة ، ولا فى التصرف كطرف فى معركة الحرب الباردة .

ولكن الذى حدث عكس هذا تماما . اذ دخلت لجنة جائزة نوبل ميدان الحرب الباردة ، ورفضت أن تمنح أى أديب يسارى فى الغرب أو فى الشرق جائزة نوبل وعندما ظهرت رواية باسترناك المشهورة « دكتور زيفاجو » أعلنت اللجنة منحها جائزة نوبل ، ولم تكن الجائزة فى الحقيقة من أجل باسترناك فرواية باسترناك هى آخر ماكتبه هذا الفنان ، وباسترناك يكتب ويؤلف منذ ثلاثين سنة ، ولكن الجائزة كانت فى الحقيقة ممنوحة للنقد الذى وجهه باسترناك لروسيا فى روايته .. لقد كان هذا النقد فى نظر اللجنة يستحق الجائزة وأكثر من الجائزة وبهذا أصبحت جائزة نوبل ظاهرة من ظواهر الحرب الباردة لاوسيلة من وسائل اطفاء هذه الحرب .

ولقد رفضت لجنة جائزة نوبل حتى اليوم أن تعطى الجائزة لسارتر ، رغم سمعته الكبيرة وجهوده الواسعة فى خدمة القضايا الانسانية كما يفهمها ويؤمن بها ، بينما نال ـ الجائزة من هم أقل منه مكانا فى الادب العالمى ، والسبب الحقيقى لهذا الموقف هو ميول سارتر اليسارية ، رغم أن سارتر لاينتسب الى حزب أو اتجاه سياسى سوى اتجاهه الانسانى الثورى .

وبلغ الامر فى الارتباك الثقافى الناتج عن الحرب الباردة ، أن أمريكا اتجهت فى ـ السنوات الأخيرة الى محاربة شارلى شابلن والوقوف فى وجهه ، وتلقى شابلن اتهاما أمريكيا عنيفا بأن اتجاهه الانسانى فى السينما هو نوع الولاء لليسار ، وهو على وجه الخصوص نوع من الولاء لروسيا . وهكذا امتدت الحرب الباردة حتى الى ميدان الفكاهة والضحك . وأصبحت هناك فكاهة شرقية وفكاهة غربية ... وذلك شىء مضحك .. ولكنه على رأى شاعرنا القديم ضحك كالبكاء .

وقد أفسدت الحرب الباردة كثيرا من فروع العلم حتى تلك

العلوم التى كان بامكانها بل كان من واجبها الابتعاد عن ميدان الحرب الباردة مثل علم النفس • فقد قرأت عدة كتب فى علم النفس للكاتب الامريكى العالم « اوفر ستريت » وزوجته • والواقع أنها كتب قيمة عظيمة الفائدة لولا أن شيئا واحدا يفسدها ويقضى على قيمتها تماما • فقد عرضت هذه الكتب نظريات علم النفس الكبرى عرضا رائعا ولكنها استخدمت هذا العرض فى الوصول الى نتائج من أغرب مايمكن تهدف كلها الى مهاجمة روسيا والكتلة الاشتراكية • لقد جعلت هذه الكتب من فرويد وادلر ويونج وغيرهم من كبار علماء النفس « موظفين » يعملون فى أجهزة الدعاية والمخابرات الأمريكية • بعد أن كان هؤلاء العلماء الكبار مستقلين بانتاجهم وأفكارهم عن مثل هذا اللون من الحرب الباردة •

بل ان بعض مراحل الحرب الباردة جعلت الدولة الواحدة تنقسم على نفسها ثقافيا — بطريقة مثيرة • فقد عاش الروس بعد الثورة فترة طويلة يرفضون فيها طبع انتاج أديبهم الكبير ديستويسفكى • لأنهم يرفضون آراءه فى الحياة ، وطريقته فى التفكير ولأنهم يعتبرونه جزءا من تراث الفكر الغربى الرأسمالى المسيحى ، بدليل مكانته الكبرى عند الغربيين وهكذا امتنع الروس لا عن قراءة الأدب الغربى فحسب بل عن قراءة أدب روسى نابع من صميم التربة الروسية • وقد استمر هذا الموقف حتى وقت قريب عندما أفرج عن أدب ديستويفسكى وبدأت تقرؤه روسيا من جديد بعد أن استعاد مكانته على أثر موت ستالين • والموقف نفسه اتخذته أمريكا من شاعرها العظيم والت وايتمان فقد تجاهلته أمريكا لفترة طويلة فى بداية هذا القرن ، لأنها أحست فيه اتجاها ثوريا عنيفا لايتلاءم مع موقف أمريكا من الحياة ، كل ذلك بينما كانت روسيا تطبع شعر ويتمان وتقرؤه بحماسة وتقدير كبيرين •

والغريب فى الامر أن التبادل التجارى يتسع بين المعسكرين فى حين أن التبادل الثقافى يقل ويضيق الى حد بعيد • وقد قال لى صديق عاد من أمريكا أخيرا بعد أن عاش فيها عدة سنوات ان بضائع الصين

الشعبية موجودة على نطاق واسع فى أمريكا ، برغم عدم اعتراف أمريكا بالصين حتى الآن ، ولكن لا أحد يقف فى وجه التجارة ، أما الثقافة الصينية فممنوعة تماما ومحرمة ، واذا ظهرت بعض كتب الاديب الصينى « لوسين » هنا أو هناك فهى تعيش فى الايدى أو فى المكتبات كما يعيش الزنجى فى أمريكا خائفا مضطهدا الى أبعد حد .

وقد كان التبادل بل الامتزاج الثقافى بين الدول الاوروبية فى القرن الماضى شائعا وقويا الى حد بعيد ، فتأثرت كل الدول الأوروبية بعضها ببعض فى القرن الماضى تأثرا كبيرا ، بحيث يمكننا أن نقول ان العوامل الرئيسية التى أعطت لاوروبا شكلها فى القرن التاسع عشر هى : الادب الروسى ، والفلسفة الالمانية والعلم الانجليزى ، ومبادىء الثورة الفرنسية . وهكذا تبادلت أوربا التأثير الكبير . وقدمت كل دولة أعظم مالديها ، فتركت أثرها على سواها .

ويقول سارتر : « لقد كنا فى أواخر القرن الماضى نقول اننا فى فرنسا لايمكن أن نفهم تولستوى وتشيكوف وديستويفسكى لأن روحهم سلافية ... ولكننا بعد ستين عاما يجب أن نعترف بأن روح فرنسا كلها أصبحت سلافية ، لانها استقبلت بحرارة هذه الاعمال الرائعة وجعلتها جزءا من تراثها » .

هذا مثال من التأثر الذى تبادلته أوروبا بعضها مع بعض حينما فتحت عقلها وقلبها للآثار المختلفة التى تخرج من كل أرض .

وهذا هو مايجب أن يكون عليه الوضع العالمى للثقافة ، يجبأن تكون الثقافة مستقلة وأن يكون هناك تنافس سلمى حول الثقافة وقد ضرب سارتر مثلا بكافكا ... لقد فسره الغرب تفسيرا خاصا وانتهى هذا التفسير الى أن كافكا يعتبر الاشتراكية « عدوه الاول » . وقال سارتر ان هذا التفسير خاطىء فقد كان نقد كافكا موجها الى البورجوازية فى تشيكوسلوفاكيا ـ حيث ولد ونشأ ـ وفى ألمانيا حيث عاش بقية حياته فلماذا لايحاول الروس تفسيره تفسيرا آخر ؟ لماذا لايقدمون له تفسيرا جديدا غير التفسير الغربى ثم يقرءونه على

ضوء هذا التفسير الجديد وبذلك يكون هناك تنافس سلمى فى الثقافة ويكون السؤال هو من يملك كافكا .. الروس ؟ أم الغرب ؟ .. ان من يملكه هو من يفهمه فهما أعمق ويحس به أفضل من غيره .

هذا مثال للتنافس الثقافى الذى يجب أن يتسع ويعمق . ونحن هنا فى القاهرة وفى العواصم المحايدة الاخرى ، نستطيع أن نفهم دعوة سارتر أكثر من غيرنا . ان مكتباتنا مفتوحة للآثار الفكرية المختلفةالتى تظهر فى الشرق وفى الغرب على السواء . نحن نستقبل كل ثقافةالعالم ونختار منها بلا تعصب . لقد شاهدنا فى القاهرة منذ شهور بتقدير عظيم رواية « سبارتاكوس » لهوارد فاست على شاشة السينما ، رغم أن المثقفين هنا لاينسون موقف (فاست) أثناء العدوان الثلاثى ، فقد أيد (فاست) العدوان وسانده ، ورغم ذلك فقد رحبنا بفيلم « سبارتاكوس» ولم يكن ذلك عن جهل بل عن تقدير لفن (فاست) القديم لا « فاست » المعاصر الذى لايجد مانعا من ضميره يمنعه من الوقوف الى جانب عدوان استعمارى مثل العدوان الثلاثى .

ان سارتر ينتهى من خطابه الرائع بقوله «يجب الغاء كل «حماية» ثقافية ويجب نشر جميع الانتاج الادبى العام المعاصر والقديم ، فى جميع اللغات وتحت مراقبة رجال الثقافة الذين سيكون عليهم مسئولية مضاعفة ، فهم أولا سيختارون ويقترحون الاعمال الادبية والثقافية الرائعة على الناشرين ليطبعوها . وسيقومون بكتابة المقدمات ومقالات النقد لتعريف الكتاب على أوسع نطاق للرأى العام .

ان الحرب الباردة لم تحدث كثيرا من الضحايا الا أنها جمدت الثقافة الانسانية واذا حدث ـ للمرة الاولى فى العالم ـ أن اتحد جميع رجال الثقافة فأننا سوف نصل بسرعة الى هدفنا الكبير : تذويب الجليد » ..

القومية العربية والخياليون

كتبت شاعرة العراق المعروفة نازك الملائكة فى مجلة الاداب البيروتية مقالين ـ بعنوان« القومية العربية والحياة » و « القومية العربية والمتشككون » وعرضت بعض آرائها التى نناقشها فى هذا المقال .

المهمة التاريخية الكبرى التى أخذها على عاتقه الكاتب والفيلسوف الكبير جان بول سارتر هى أنه وقف منذ أواخر الحرب العالمية حتى اليوم ليقدم أقسى وأروع نقد « للأديب » بشكل عام ، فقد كان الاديب دائما يبحث عن الجمال قبل أن يبحث عن الهدف ، وقد استطاع سارتر أن يضع يده على هذين العنصرين فى تكوين الادب ثم قلب القضية الشائعة التى تقول « ان الجمال أولا » وجعل منها « الهدف أولا ثم يأتى الجمال بعد ذلك فى الدرجة الثانية » ... وقد تبدو هذه القضية قديمة وسابقة على وجود سارتر بكثير ، لكن الجديد فى موقف سارتر أنه ألح على قضيته الحاحا كبيرا ووضحها وكشف أهميتها وخطرها ، ثم انتقل هو نفسه من أديب باحث عن الجمال الى أديب باحث عن الحق ، وأعلن عداءه « للادب الشعرى الخالص » وأخذ يدعو « الى أدب يؤدى الى عمل أخلاقى واجتماعى وسياسى بين البشر ... أدب غايته بكل بساطة الاتصال بالآخرين عن طريق استعمال وسائل الاتصال استعمالا متواضعا » ثم يلخص موقفه فيقول « ان المسئولية والصدق يأتيان أولا . والأسلوب والجمالية فى المحل الثانى » ثم يقول تلك العبارة القوية الواضحة التى تتجه الى هؤلاء الذين يعبدون الجمال على حساب الحقيقة :

« ليست القضية هى اشعال حرائق فى أعشاب اللغة ولا ادراك المطلق باحراق القاموس » .

وما أكثر حاجة ثقافتنا العربيـــة الى أن ننقل اليها « درس سارتر » ونفهمه ونستفيد منه ... والمســألة لاتعنى انتقالا ســهلا يسيرا من الاهتمام بالجمــال الى الاهتمام بالقضايا السياســية والاجتماعيــة والاخلاقية ، فالمفروض أن يكون الاديب ، ناضجا ، وألا يتخلى كلية عن الاهتمام بالجمال الادبى بل عليه أن يستخدمه كوسيلة للوصــول الى هدفه ... بدلا من جعله هدفا فى ذاته .

ان دعوة الاديب الى أن يستفيد من « روح العلم » والوضوح والتحــدد والســيطرة على الألفاظ ، وأن يستفيد من روح النضـال ، الايجابية وعدم الترفع عن النزول الى ميدان القضايا الواقعية الراهنة »هذه الدعوة هى خلاصـــة أفكار ســـارتر وهى مانحن فى أمس الحاجة اليه اليوم .

وعندما علقت فى مجلة الآداب البيروتية على مقال القومية العربية والحياة للشاعرة الموهوبة نازك الملائكة ، لاحظت أنها تقدم فى مقالها « أفكارا شعرية » اذا صـــح التعبير ، وأن هذه « الأفــكار الشــعرية ، فقيرة من الناحية الموضوعية لانها لاتقدم سوى الضباب والبخور .. لقد كان مقال نازك فى نظرى مثالا للمنهج الذى يقول : الجمال أولا والحقيقة بعد ذلك وقلت هذا الكلام لنازك فكان ردها فى مقال لهــا بعنوان « القومية العربية والمتشــككون » .

ولقد كشفت نازك فى هــذا المقال الجــديد عن أفكار محــددة وموضوعية وقد أقنعتنى هذه الافكار أن شكى فى قيمة مقالها الاول كان مفيدا .. لأنها عنـــدما خرجت من ضـــباب الشعر ، الى ضـــوء الموضوعية قدمت أفكارا عن القومية العربية أعتقد أنها من أكثر الافكار خطأ وأكثرها حاجة الى التعديل ، وأنا لا أكره الجمــال الأدبى فى ذاته ، ولكننى كنت أخاف دائما أن يكون وراء هذا الجمال أفكار مثل أفكار نازك التى عرضتها فى مقالها الأخير .. وللأسف كان ظنى صادقا ..

وسأبدأ الحديث عن نقطتين هامتين أثارتهما نازك فى مقالها الاخير ثم أتحدث بعد ذلك عن أفكار ثانوية أخرى وردت فى المقال .

تقول نازك ـ وهـــذه هى النقطة الأولى التى أريد أن أناقشـــها ·

« اسمح لى أن أسجل احتجاجى على اعتبارك القومية العربية«عقيدة» ان ذلك يقلل من قيمتها وينزل بها الى مستوى الأشياء العارضة المتبدلة ، ذلك من السهل أن نستبدل العقائد بين يوم وليـــلة ، العقائد تخضـــع للثقـافات ، والاهواء ، والنمو الفكرى للانســـان ··· انهـا مكتسبـــة لا أصيلة » ·

ان نازك الملائكة تنفر نفورا واضحا من اعتبار القومية العربية عقيدة ، والحقيقة هى أنها أولا وقبل كل شيء عقيدة ، وهى عقيدة على وجه الخصوص فى هذه المرحلة من تاريخنا ·· عقيدة تتفتح كل يوم وتضيف الى غيرها من الافكار وتأخذ منها ··· والعقيـــدة هى أرقى صورة للمشاعر الانسانية وهى الصـــورة الايجابية لهـــذه المشاعر · فالشعور بكراهية الظلم ، والشعور بحب العدل ، والشعور بالكرامة، كل هذه المشاعر موجودة فى تاريخ الانســـان منـــذ زمان قديم ، ولكن هذه المشاعر كلها لم تصبح ذات قيمة فى الحياة الا بعد أن تحولت الى عقائد ، فالانسان الذى يحمل فى قلبه شعورا ضـــد الظلم هو محارب بدون سلاح ، أما الانسان ـــ الاشتراكى فهو المحـــارب الذى يملك سلاحا قويا فى يده ··· لقد تحول شعوره ضد الظلم الاجتماعى الى عقيدة واضحة ، وأصبح قادرا على أن يكون ايجـــابيا وعلى أن يغير العالم الذى لايعجبه ، وبقية المشاعر الانسانية الاخرى لم تغير العالم أبدا الا بعد أن تحولت الى عقائد ، ولقد بذلت البشرية جهدا كبيرا قاسيا للوصول الى عقائدها الايجابية الفعالة ، فتوصلت ـ عن طـــريق الأنبياء ــ الى الاديان أولا · واستطاع محمد أن يقلب المجتمع العربى بعد أن عاش فى الغـــار ســـنوات طويلة يدرس ويتأمل ويفكر فى الطريقة الايجابية التى يمكن أن يحول بها شعور الفقراء والمضطهدين فى مجتمع العرب الى عقيدة تقدم القوانين التى تمنع الظلم والاضطهاد ، ولم يستطع محمد أن يغير المجتمع العربى بمجرد شعوره ، بل بعقيدته الواضحة ·

ومن قبل ذلك قام المسيح بدوره فى التغيير والتعديل عندما تبلورت

مشاعره فى عقيدة مناسبة للعصر وللمشكلات التى كان يلقاهاالانسان فى مجتمع ذلك الحين ، وقد توصل الانسان العصرى الى كثير من العقائد الاساسية التى تحكم عصرنا وترفعه على غيره من العصور السابقة ، وذلك بعد دماء كثيرة بذلها الثوار فى كل منطقة من مناطق العالم ، وبعد ليال مضنية سهرها ـ علماء كبار كانوا يفكرون باخلاص فى مصير الانسان ويحاولون بلورة مشاعرهم النبيلة التى تطمح الى تحقيق السعادة الانسانية فى عقائد علمية منظمة .. هكذا توصل الناس الى عقيدة الديموقراطية ، وتوصلوا الى عقيدة الاشتراكية وتوصلوا الى حق تقرير المصير والى منع المتاجرة بالرقيق .

وعندما تحولت المشاعر الى عقائد بدأت هذه المشاعر تخرج من سلبيتها وتغير العالم . صحيح أن العقائد بهذا الشكل تعتبر شيئا اكتسبه الانسان بعد جهد وكفاح ، ولكن هل ينقص « الاكتساب »من قيمة العقيدة وأهميتها ؟ ... تقول نازك : نعم ان الشىء المكتسب لاقيمة له فهو متغير متقلب ولذلك فهى تضن على القومية العربية بأن تصبح عقيدة ، أى شيئا مكتسبا قابلا للتغيير .

أقول لنازك أولا : ـ ان الاكتساب ليس دائما نقيضا للاصالة، بل على العكس تماما ، فكثير من الاشياء المكتسبة تصبح عظيمةرائعة فى تاريخ الانسان فالتعليم نوع من الاكتساب ، والكونت الاقطاعى ليوتولستوى اكتسب عن طريق الثقافة والجهد وتهذيب النفس ونقد الذات حبا عميقا للفلاحين وكراهية كبيرة لما ورثه عن أهله من صفات الاقطاعيين والنبلاء والسادة ، فتنازل عن أرضه ، وهاجم نظام الامتلاك هجوما عنيفا ، ووقف ضد أسرته موقفا قاسيا ، ولم يتم له ذلك منذ اللحظة الاولى فى الحياة بل تم بعد أن تجاوز الخمسين ، أى بعد دراسة وتدريب ... بعد اكتساب .. وعمر بن الخطاب ، الرجل العنيد الارستقراطى الذى يتباهى بقوته وجاهه تحول بتدريب نفسه وبصفات اكتسبها الى محارب قوى من أجل عقيدة آمن بها ، لقد تحول العنيد فيه الى متواضع ، وتحول المتباهى المزهو الى انسان قاس على نفسه

وعلى مشـــاعره الطبيعية ، وانتصرت صفاته المكتسبة وسجلت فى التاريخ صفحات مشرقة ••• والأشياء المكتسبة أيضـــا فى حياة المجتمعات لم تكن تافهة ولا عارضة •• لقد قال لنا الاستعمار عن الاقليم الجنوبى فى الكتب التى كنا ندرسها فى مدارسنا : ان بلادكم زراعية ولا يمكن أن تكون غير ذلك •• وكان التاريخ يؤيدهم فمنذ آلاف السنين ومصر بلد للفلاحين الذين يعيشون عـلى الزراعة •• ولكننا الآن تتحـدى كتب الاستعمار وتتحدى آلاف السنين القديمة ، وماء النيل الذى كنا نزرع به بقعة من الأرض أصـــبحنا نستخرج منه الكهرباء ، وســيناء المهجورة التى لاقيمة لها لأنها جبل ورمل زحفت اليها كتائب من العمال العــرب تستخرج منها البترول والمنجنيز ، وكم هناك من فـدائيين وشهداء يقاومون قسوة الطبيعــة ، ليتغير مجتمعهم ، ويصبح ــ عن طريق الاكتساب ــ مجتمعا صناعيا تطغى فيه أصوات المصانع عــلى أصوات الجداول •

وشيء آخر عن قضية « الاكتساب » :

ان « الفكرة القومية » فى طبيعتها تحتاج الى أن تخضع الى عملية اختيار وتنقية واضافة وتعديل ••• ألم يكن هتلر الذى أراد أن يعتدى على العالم كله ، قوميا ألمانيا يلتهب حماســا لقوميته ، وينــادى بمجــد ألمانيا وروح المانيا ، حتى لقد أحال بلاده الى قوة ملتهبة •• ثم انهــار كل شيء •• لماذا ؟ •• لأنه لم يختر من عناصر الشــــعور القومى ماهــو سليم وصحيح ، ولم يضف الى قوميتــه معنى انسانيا واحــدا ، ولم يهذب قوميته من الأنانية والتعصب والاستعلاء •• لم يجعل منهــا عقيــدة سامية •

ونحن عندما نتكلم اليوم عن القومية العربية بمعناها العقائدى ، انما نتكلم عن الشعور القومى بعد أن تم صقله وتهذيبه والاضافة اليه لقد خلصناه من التعصب للعرق ، ذلك التعصب الــذى تكمن بذوره فى كل شعور قومى ، فالقوميــة العربية ــ بمعناها العقائدى ــ قوميــة انسانية تحنو على الأقليات وتتعاون مـــع القوميــات الأخرى بصـــدر

واسع متسامح •• ان القومية العربية قد اكتسبت بعض الصفات الجديدة •• وتخلصت من بعض الصفات القديمة •• وهى لهذا ناضجة قوية .

ثم مارأى نازك فيما يقوله علماء « البيولوجى » : من أن الصفات المكتسبة فى الانسان تصبح وراثية فى أولاده ؟ ••

فالاكتساب ، ليس كما تفهمه شاعرتنا نازك الملائكة : شيئا تافها عرضيا •• بل هو على العكس من ذلك لو فهم على صورته الصحيحة ، انه دليل راق على عمق الانسانية ـ وعظمتها •• فالانسان ينتقل من السىء الى الافضل عن طريق الاكتساب والجماعات تنتقل من الضعف الى القوة عن طريق الاكتساب •• وهكذا .

وأقول لنازك بعد ذلك : انها تخلط بين التغير والتطور ، ان العقائد الكبرى فى تاريخ الانسان لم تتغير ، بل تطورت واكتسبت أشياء جديدة نتيجة للتغيرات التى حدثت فى العالم ••• ان التغير والذوبان ، شىء غير التطور والنمو ••• فروح العدل والدعوة الى المساواة هى الفكرة الأساسية فى الأديان الكبرى ، وهى نفسها الفكرة الجوهرية فى أديان العصر الحديث مثل : الديموقراطية والاشتراكية وتقرير المصير ••

ولذلك فلا خوف على العقيدة الكبيرة الناضجة من التغير ، انها تتطور ولا تزول •• والقومية العربية عندما تصبح عقيدة فلا خطر عليها لأنها فى الواقع ترتفع من مجرد الشعور الكامن فى النفوس ••• الشعور السلبى •• الى صورة أخرى ايجابية تتطور وتنمو ، ولا تتغير وتتلاشى •• وفى اللحظة التى تصبح فيها القومية العربية عقيدة ناضجة سليمة ، فانها تستطيع أن تغير كل الوقائع التى تتناقض تناقضا صارخا مع القومية العربية فالقومية العربية لها ـ وعلى الأخص فى هذه المرحلة ـ وظيفة تاريخية ينبغى أن تؤديها ولن تستطيع تأديتها لو بقيت مجرد شعور •• بل لابد أن تصبح عقيدة منظمة واعية : نابعة

من الشعور القومى وخاضعة للاختيار والاكتساب والمرونة التى هى دليل الحياة وليست دليل الضعف والانهيار .

فهل تريد نازك للقومية العربية أن تظل فى منطقة بدائية من الشعور العربى .. وتأبى عليها أن تكون عقيدة ناضجة منظمة ، تناولتها يد التهذيب وحددت وظيفتها وأكسبتها عناصر جديدة .. عقول مفكرة منظمة ؟ ... هل تريد نازك للقومية العربية أن تظل شعورا عاما يختبىء تحته المؤمنون الحقيقيون بها مع الذين يظنونها ميراثا ورثوه عن الآباء والأجداد مع هؤلاء الذين يظنونها انتصارا لدين على دين ؟ ..

اننى لا أستطيع أن أقتنع أبدا أن بأن عدو الاشتراكية هو قومى عربى حتى لو أثبت بالدلائل القاطعة أنه من سلالة قحطان أو عدنان ، ولا أستطيع أن أقتنع أبدا بأن نصير الاقطاع هو قومى عربى مهما قدم من الأدلة والآسانيد ، وكذلك لا أستطيع أن أقتنع بأن عدو الحياد هو قومى عربى .. لقد أصبحت القومية العربية ، من خلال نموها وتحددها الفكرى ، عقيدة للشعب العربى : تنادى بالوحدة وتعادى كل العقبات التى تقف فى طريق المواطن العربى لتعطل تقدمه أو معرفته لنفسه مثل الاقطاع وانعدام المساواة فى الميدان الاقتصادى ، ولايمكن فصل القومية العربية عن هذه المعانى بحال من الأحوال ، وكل هذه المعانى اكتسبتها القومية العربية الى حد كبير خلال معاركها المختلفة ، وأصبحت معانى تكاد تصبح من قوتها وأصالتها طبيعة من طبائع القومية العربية نفسها .

هذه هى فكرة نازك الخطيرة عن القومية العربية ، وهى الفكرة التى تؤدى الى حصرها فى مستواها الشعرى الغامض الذى تختلط فيه المعانى وتتناقض ، انها تعنى بقاء القومية العربية فى مرحلة الطفولة الغضة اللينة ، تعنى بقاءها قومية خيالية رومانسية : لاتتحرك ولاتعمل ولا تهدف الى شىء ، وقد كان هذا الكلام يجرى منذ مئتين سنة ، ولكننا الآن لانستطيع أن نقبله بعد أن اشتد عود القومية ونضج ، ودخلت

معارك وتحددت لها ملامح بارزة ... ان القومية تسمو ولا تنقص يتحولها الى عقيدة ، وعلى هذا المستوى ينبغى أن نفهمها ونحرص عليها .

النقطة الثانية الخطيرة التى أثارتها نازك تتمثل فى قولها « لماذا تخلط كل الخلط بين القومية العربية والدولة العربية ؟ اننا عرب سواء أقامت الدولة العربية الموحدة أم لم تقم وذلك لأن العروبة مستقلة تمام الاستقلال عن شكل الدولة أو الدول التى تقوم فى داخل نطاقها » .

وفى اعتقادى أن نازك بهذا الكلام تلتقى ــ دون قصد فيما أعتقد ــ بجماعة لاتحب هى أن تلتقى بهم ... والا أفليس هذا الكلام هو نفسه مارده الشيوعيون فى العراق بعد ثورة ١٤ يوليو .. ؟ ... لقد كانوا يقولون انالقوميةالعربية شىء ، والوحدة العربية شىء آخر ، كانوا يقولون ان القومية العربية المتحررة لاتحتم أبدا قيام وحدة بين العراق والجمهورية العربية المتحدة .. والفصل بين القومية العربية والدولة العربية سواء جاء على لسان انسانة لايمكن أن يتطرق الشك فى اخلاصها لقوميتها مثل نازك أو جاء على لسان آخرين لهم هوى وغرض .. هو كلام خاطىء لايتفق مع الحقيقة .

انالقومية العربية والدولةالعربية وجهانلحقيقة واحدة والقومية العربية هىالدولة العربية فىالمجال النظرى والدولة العربية هىالقومية العربية فى ميدان العمل والتطبيق ، والخيط الذى يربط بينهما يمكن رؤيته واكتشافه بسهولة ، ويجب التمسك به دائما .

ان تجزئة الوطن العربى قد كان لها نتائجها الخطيرة على الاحساس القومى نفسه ، ففى مصر استطاع الاستعمار أن يعزلهذا الجزء العربى عن الأجزاء الأخرى ، وقد أدى هذا الوضع الى ضعف الشعور القومى عند المصريين لفترة طويلة ، بل لقد أدى الى أن تبنى بعض المفكرين أفكارا مناقضة للقومية العربية ونادى بخطوات عملية

للتخلص من الارتباط بالتراث العربى والتاريخ العربى ، ولم يكن كل هؤلاء المفكرين خاضعين لتاثير الاستعمار بل كان البعض صادرا عن فكرة خاطئة ولكنها مخلصة ، لقد كان هؤلاء المفكرون يستنتجون أفكارهم من رؤيتهم للواقع ، ومن رغبتهم فى الانتساب الى حضارة قوية كحضارة الغرب، وطالب هؤلاء المفكرون باحياء الفرعونية ، وطالبوا باستخدام الحروف اللاتينية فى الكتابة العربية ... وباختصار طالبوا بتحويل مصر الى جزء من أوروبا وقد أدت هذه الحركات كلها الى اضعاف الفكرة العربية فى مصر حتى قامت الثورة سنة ١٩٥٢ ، فأنقذت الفكرة العربية من الغرق فى بحر العزلة والانطواء ، وسرعان ماربطت الثورة الجديدة بين الدولة العربية والقومية العربية وبذلك استطاعت أن تعيد للفكرة العربية فى مصر ازدهارها الذى يفوق عشرات المرات ماكان عليه الأمر قبل الثورة .

ثم أليس من البديهيات أن مأساة فلسطين تعتبر جرحا ينزف باستمرار فى جسد القومية العربية ، وأن هذا الجرح قد حدث لأن فلسطين كانت دولة عربية صغيرة ولولا يقظة العرب، ولولا اكتشافهم ، أن القوة الوحيدة التى تستطيع أن تضمن للقومية العربية قوتها واستمرارها هى الدولة العربية الواحدة لاستطاعت اسرائيل بدون جدال أن تقضى قضاء نهائيا على العرب فى فلسطين كما قضى الأوروبيون المهاجرون على الهنود الحمر فى أمريكا .

ان القومية العربية تقوم على أساس من الشعور العميق فى نفوس المواطنين ، ولكن الخلاف بين النظرة الخيالية التى تتبناها نازك والنظرة العلمية التى أدعو مع الكثيرين من أبناء وطننا العربى الى الايمان بها ، هو أن النظرة الاولى تؤمن بأن القومية مبنية على أساس من الشعور الخالد الذى لا يمكن اقتلاعه بحال من الأحوال .. وهذا غير صحيح ، فأصالة الشعور القومى وعمقه يمكن أن يزولا اذا انتسبا الى قومية ضعيفة من الناحية العملية .

ان الارتباط بين القومية العربية والدولة العربية هو ارتباط

عضوى ، والتفرقة بينهما تؤدى الى اضعاف الشعور القومى وتعريضه للزوال ، ولنتصور أسرة كبيرة تفرق أفرادها فى بلاد بعيدة وانقطعت الصلة بينهم وأصبحوا مجموعة من الوحدات الصغيرة الضعيفة بعد أن كانوا وحدة واحدة قوية متماسكة •• ان الوحدات الصغيرة سوف تذوب وتتلاشى فى وحدات أخرى قوية قد تحمل من الصفات والخصائص مايتناقض تماما مع الصفات الأسياسية للأسرة ، وبدون شك سوف تتلاشى هذه الصفات الأساسية نفسها •

تلك حقائق الحياة التى ينبغى أن نعترف بها ، وقد تكون هذه الحقائق قاسية ولكن يجب أن نعترف بها ، ونخرج من نظرتنا الخيالية الرومانتيكية التى تتبناها نازك ، والتى تحمل هوى وحبا مخلصا ، ولكنها سوف تتكسر وتنهزم أمام الوقائع الموضوعية • ولتعذرنى نازك عن استخدام هذه العبارات • ولتعذرنى نازك مرة أخرى اذا قلت لها ان محنة العراق القومية قد استندت استنادا كبيرا الى أفكار من هذا النوع الذى تردده ، ولقد كان هناك زعيم مخلص له دور كبير فى الثورة ، وهو الآن يكاد يعيش فى ظلام النسيان ، ولقد حدث الجانب الأكبر من هزيمته بسبب أفكاره الخيالية ، وعدم لجوئه الى التخطيط العلمى لمعرفة الاتجاه الصحيح للعمل القومى ولمعرفة الاتجاه المضاد الذى يقف فى وجه القومية العربية والذى كان من السهل اكتشافه ومعرفته لو خرج ذلك الزعيم ورفاقه من سحر الخيال والوهم والرومانسية الى خشونة النزعة الموضوعية الواضحة المحدودة •

ولم يجد هذا الزعيم بالطبع سندا كافيا من المفكرين القوميين ، فلم يقدموا اليه خطة ، ولم يضعوا أمامه تفسيرا صحيحا للموقف •• وكانت تجربة كبيرة بالنسبة للحركة القومية تجربة علمتنا ، ويجب أن نستفيد منها ولم يكن الشعور القومى المتحمس ينقص الثورة فى العراق ، بل كان ينقصها التنظيم الموضوعى لهذا الشعور القومى الجارف الذى لم تكن قوته مفيدة فى الوصول الى الهدف المنشود •

ترى هل تبينت نازك لماذا أتردد فى الموافقة على الأفكار العامة وعلى طريقة التفكير الشعرى الذى تعالج به تلك المشكلات العامة الحساسة بالنسبة للأمة العربية ؟... لقد وصفتنى نازك بأننى أستخدم وسائل ارهابية فى مناقشتها ، لأننى طالبتها أن تعتمد على مزيد من الثقافة السياسية فى شرح القضية القومية وتفسيرها فهل يعتبر ن الارهاب أن أدعو نازك وغيرها من المثقفين والمفكرين الى خوض المعركة الجديدة فى حياتنا اليوم ؟ ان المواطن العربى ليس بحاجة الى مزيد من دفعات الحماس بقدر ماهو بحاجة الى مزيد من الوعى والوضوح ، ان الشعور القومى واضح ملتهب تمتزج فيه أمنيات المستقبل بالجراح والمآسى التى عشناها فى الماضى ونعيشها فى الحاضر ولكن المشكلة هى أن القومية العربية كفكرة موضوعية بحاجة الى مزيد من التحديد والدراسة والفهم .ان المقال الذى قدمته نازك بعنوان « القومية العربية والحياة » شبيه بجهد يبذله انسان لحفر بئر مياه فى منطقة مليئة بالآبار الفائضة على الحاجة ، وهناك فى نفس الوقت منطقة أخرى تشكو الظمأ وتصرخ لأنها بحاجة الى قطرة ماء ... فماذا لو تخلف عن العمل كل انسان قادر على العمل ؟ وماذا لو ذهب القادرون ونازك قادرة ، لحفر الآبار الجديدة فى منطقة الآبار الفائضة على الحاجة ان هذا هو الاعتراض الذى أقدمه على طريقة نازك فى التفكير بالاضافة الى الخلافات الموضوعية المحدودة بينى وبينها ..

لقد كنت أتمنى دائما أن تصبح نازك بالنسبة للقومية العربية كما كانت بياتريس و ب بالنسبة للحركة الاشتراكية الانكليزية : لقد فكرت بياتريس وب على نطاق واسع وقامت بدور كبير فى التنظيم الفكرى لهذه الحركة فكانت علما باهرا من أعلام الحركة الاشتراكية العالمية ، وفى طريق العدل يذكرها العادلون والباحثون عن المساواة والذين يكرهون الظلم الاجتماعى .. وكم نحن بحاجة الى انسانة عندها مواهب نازك لتقوم بعمل مشابه بالنسبة للحركة القومية ولن يقضى الجهد العلمى على مواهبها الشعرية ، بل سوف يستفيد

هذا الجهد من مواهبها ويفيد تلك المواهب .. لقد بدأ سارتر كاتبا لايعرف غير الجمال الأدبى ، وهو اليوم يستخدم هذا الجمال الأدبى فى مناقشة المشكلات الانسانية الكبرى مثل مشكلة الجزائر وهو يستخدم الأرقام والحقائق بكثرة فى مقالاته ولكنها مع ذلك مقالات جميلة ، بل لقد أصبح الجمال فى هذه المقالات قوة تأثيرية كبيرة بالنسبة للجماهير القارئة ، انه يحمل القضية بوضوحها الى قلوب الناس على جناح من الجمال الأدبى فتكون النتيجة هى المعرفة الممزوجة بالانفعال الحقيقى العميق .

لقد هاجمت نازك المثقفين وقالت انها تكتب للمواطنين البسطاء ولتصدقنى نازك أن أحدا من هؤلاء البسطاء لايقرأ لها ولا يهتم بما تكتبه هى أو غيرها .. انها تتكلم عن الفلاحين وعما فيهم من أصالة والواقع أننى لا أختلف معها فى ذلك ، فكاتب هذه السطور كانت أمه فلاحة لاتقرأ ولا تكتب ومازال أعمامه وأخواله يعملون فى الأرض ، وكان هو نفسه قبل أن يتعلم بل وخلال تعليمه يعمل فى الأرض كفلاح عادى ... وهو يعلم مافى حياة الفلاح من خصب وأصالة ، ولكنه يعلم أيضا مافى هذه الحياة من مرارة وانعدام وعى ، وماهى بحاجة اليه من مساعدات يقدمها المثقفون المخلصون ، ان حياة الفلاح العربى سيئة للغاية ، وهى ليست نموذجا صالحا يصح أن نمجده ونعتبره شيئا مثاليا بل ان من الواجب أن نطالب بتغييرها وتخليصها من عناصر المأساة التى تحيط بها .

اننا بحاجة الى أن نخرج من نطاق الخيال الى نطاق الفهم الموضوعى وقوميتنا العربية بحاجة الى انقلاب اجتماعى وانقلاب اقتصادى ، وعلى المثقفين المخلصين أن يخرجوا من نطاق عبادة «الجمال الخالص» الى الاهتمام بالجمال الذى يخدم حقائق الحياة ، ويوم نصل الى مجتمعنا المثالى الجميل الذى نحلم به حيث يتوفر الخبز للجميع ، وتقل الأزمات المادية والمعنوية التى تهين كرامة الانسان وتحط من شأنه ، وسوف يجىء ذلك اليوم بدون جدال ،

ويومها نستطيع أن نعبد الجمال كما نشاء ، ونستطيع أن نملأ حياتنا بالكلمات الجميلة وحسب ، ونستطيع أن نفكر فى زراعة الورد ، الى جانب سنابل القمح .. أما الآن فالقضية حاسمة ولا تحتاج الى مساومة أو خيال بل هى بحاجة الى معرفة وعلم ومنهج واضح .. فاذا كان هذا الرأى يعتبر ارهابا فانه لشرف لى أن أكون ارهابيا ... مخلصا فى الارهاب !

وقد هاجمت نازك الملائكة « كولن ولسن » وقالت أنه يسمم ثقافة شبابنا .. والواقع أن هذا الحكم هو أيضا خطأ وتسوع ، فكولن ولسن لايسمم ، ولكنه يطهر ، وكولن ولسن ساخط مثلنا على حضارة الغرب يلمح مافيها من نقص فى القيم وفراغ معنوى عميق ، وهو فى كتبه « انما يرثى » الغرب ويتطلع الى حضارة جديدة ، وانسان جديد ، ويأسه الظاهرى يكشف فى داخله عن تفاؤل عميق وأمل عريض ... واذا كان هناك نوع من المثقفين يثير الضيق بما فيه من ادعاء وتظاهر ، فان كولن ولسن ليس من هؤلاء المثقفين ، بل هو كاتب متواضع مخلص فى نقده للغرب وسخطه عليه ... ونازك معها كل الحق فى احتقار المثقفين الذين يعيشون على الادعاء والغرور والتظاهر واحتقار الحياة واحتقار « المواطن العادى » الذى هو اليوم بدون جدال بطل حياتنا والمكافح الأول فى ميدانها سواء كان ذلك فى الحقل أو فى المصنع أو فى مكاتب الموظفين .. هذا النوع من المثقفين عندنا وفى أى مكان آخر يستحق الاحتقار والازدراء والمقاومة .. ولكن هذا لايعنى أن الثقافة دائما قرينة للتعقيد والمرض النفسى ، بل هى فى الأصل وسيلة لرقى الانسان وارتفاعه الى المستوى الايجابى الذى يفيد الناس والحياة ... وهذا ماتتمناه للثقافة والمثقفين فى بلادنا ...

الثورة فى أحلام الأدباء

فى سنة ١٩٢٧ أتم توفيق الحكيم عملا من أعظم أعماله الفنية هو رواية عودة الروح ، وكانت عودة الروح هى أول بداية للرواية العربية بمعناها الصحيح ، وقد اكتسبت الرواية أهميتها وسحرها لأكثر من سبب ، فالحكيم يتحدث فى هذه الرواية كما قال أحد النقاد « كأنه شهرزاد فى ألف ليلة » أى أنه يتحدث ببساطة كاملة ، وخيال على جانب كبير من الغنى والاتساع ، انه ــ كشهرزاد ــ يدخلنا الى عالمه السحرى وسط أضواء خافتة حسنة التوزيع والتلوين ، وبين موسيقى جذابة ، وصور بارعة من الخيال العجيب .

ولكن القيمة الفنية وحدها ليست هى سر أهمية هذه الرواية ، وليست الشاعرية التى تملأ صفحات الرواية وتنبع من شخصياتها وحوادثها هى وحدها سر هذه الأهمية ، بل هناك شىء آخر يجعل للرواية قيمة كبيرة فى أدبنا وتاريخنا الوطنى معا . فالرواية كما قال عنها ناقد فرنسى « تعبر عن الحالة الاجتماعية لشعب فى حالة تطور سريع بعد أن كان سجينا لفترة طويلة فى قيود العادات القديمة » . ففى تلك الفترة البعيدة أى منذ أربعين سنة تقريبا كان توفيق الحكيم ينظر ببصيرته الفنية الى أعماق الشعب ، ويحس أنه شعب حى سوف يقبل على الحضارة ويبدع فى ميدان هذه الحضارة .

ورغم أن الرواية تدور حول أسرة متوسطة ، فانك تشعر أن البطل الحقيقى فى هذه الرواية هو الفلاح ، فالحكيم كان يشعر ــ بحق ــ أن الفلاح هو الذى يمثل الشعب تمثيلا حقيقيا ، وأن التطور الصحيح لن يتم الا اذا كانت نقطة البدء هى الفلاح . وتوفيق الحكيم بهذه الفكرة كان أول من أشار الى طبيعة الثورة القادمة ،

الثورة التى كان يحلم بها الشعب والتى كان يحتاج اليها ، وبرغم أنها اشارة غامضة الا أنها مع ذلك اشارة لها قيمتها وأهميتها .

والذى حدث بعد ذلك أن ثورة ١٩٥٢ قد ربطت نفسها منذ اللحظة الأولى بالفلاحين ، وكما كان الحكيم موهوبا فى احساسه بالثورة المطلوبة وحلمه بها ، كانت ثورة ١٩٥٢ أصيلة فى معرفة مكانها على خريطة التاريخ . فمنذ آلاف السنين والشعب الذى يسكن على ضفاف النيل هو شعب من الفلاحين ، ومنذ آلاف السنين والكفاح الذى يدور فى بلادنا هو كفاح الفلاحين ، والأحزان والآمال هى أحزان الفلاحين وآمالهم .

ولذلك فقد كان من الضرورى لثورة تريد أن تؤثر فى التاريخ وتغيره أن تكون ثورة فلاحين أولا ، ولو راجعنا قرارات الثورة الاولى لوجدنا أنها كانت خاصة بالارض والفلاح ، بالبطل الحقيقى لثروة البلاد ومستقبلها . فقد كان أهم قانون أصدرته الثورة فى سنتها الأولى هو قانون الاصلاح الزراعى وتحديد الملكية .

لقد أحس توفيق الحكيم وتنبأ ببصيرته أن الثورة ستكون فى مرحلتها الاولى ثورة فلاحين . ولكن من أين تجىء الثورة ؟ ان الرؤية السريعة للحياة فى مصر عندما كتب الحكيم روايته كانت تقول : ان الفلاح كائن سلبى خامل . لايمكن أن يقوم بثورة ، أو أن يتجاوب مع ثورة تقوم من أجله . ولكن الحكيم كان يرى غير ذلك ، كان يرى أن قلب الفلاح ينطوى على أعظم معانى الثورة لأنه ينطوى على أعظم معانى الحب للحياة ، وفلاح النيل عندما يحب فانه يحب على طريقته المتصوفة ، انه يتحول الى عاشق يعبد محبوبه ويقدم له القرابين ويغنى له . هكذا كان الفلاح فى مصر كما رآه توفيق الحكيم وعبر عنه :

« هل وجدت أفقر من هذا الفلاح المصرى ؟ أو أهول عملا ؟ ... عمل ليل نهار فى الشمس المحرقة ، والبرد القارس ، وكسرة من خبز الأذرة ، وقطعة من الجبن مع بعض الأعشاب من السويس وغيره مما

ينبت وحده .. تضحية مستمرة ، وصبر دائم ومع ذلك فهاهم أولاء يغنون ! »

« ان هذا الشعب الذى نحسبه جاهلا ليعلم أشياء كثيرة ، لكنه يعلمها بقلبه لا بعقله . ان الحكمة العليا فى دمه ولا يعلم والقوة فى نفسه ولا يعلم .. هذا شعب قديم : جئ بفلاح من هؤلاء وأخرج قلبه تجد فيه رواسب عشرة آلاف سنة من تجاريب ومعرفة رسب بعضها فوق بعض وهو لايدرى » .

« نعم هو يجهل ذلك ، ولكن هناك لحظات حرجة ، تخرج فيها هذه المعرفة وهذه التجاريب فتسعفه وهو لايعلم من أين جاءته » .

« وهذا مايفسر لنا تلك اللحظات من التاريخ التى نرى فيها هذا الشعب يطفر طفرة مدهشة فى قليل من الوقت ، ويأتى بأعمال عجاب فى طرفة عين » .

فالفلاح كما يراه توفيق الحكيم كان يحب الحياة حبا عميقا ، يعبدها ، ولذلك فهو يغنى لها برغم عذابه وشقائه ، وهذا الغناء الذى يبدو فى غير موضعه هو نفسه الذى سيكون مصدرا لأعمال كبرى يقوم بها هذا الفلاح وتغيرات شاملة يستطيع أن يخطو بها خطوات تعوضه عن تأخره فى التاريخ .

وبعد أن وضع توفيق الحكيم يده منذ أربعين سنة تقريبا على طبيعة الثورة القادمة فى مصر ، وهى أن تكون ثورة فلاحين أولا ، وضع يده أيضا على ثلاثة معان أخرى على جانب كبير من الأهمية ، تجسدت هذه المعانى بعد ذلك فى ثورة يوليو سنة ١٩٥٢ .

المعنى الأول الذى كان الحكيم يحلم به هو معنى الوحدة القومية ، وهذا المعنى الذى تجسده بعض الاغانى المصرية القديمة حيث تقول أغنية من هذه الأغانى :

« عندما يصير الزمن الى خلود ، سوف نراك من جديد ، لأنك سائر الى هناك حيث الكل فى واحد » .. ففكرة الكل فى واحد

تتضح فى طبيعة الفلاح وفى حياته خلال التاريخ ، فالألم يجمع الفلاحين ، والوحدة بينهم هى ميراث قديم ورثوه من تجارب الايام والليالى ، وسرعان ماتبرز هذه الصفة ، صفة الوحدة عند الخطر ، كأنها سد ضد هذا الخطر ، وكأن الأيام قد علمتهم أن الوحدة فى الألم والمقاومة هى طريق العمل ، وطريق الخلاص •

ويضرب الحكيم مثالا من تاريخ هذا الشعب هو بناء الأهرام : « اننا لانستطيع أن تتصور تلك العواطف التى كانت تجعل من هذا الشعب فردا واحدا يستطيع أن يحمل على أكتافه الأحجار الهائلة عاما وهو باسم الثغر مبتهج الفؤاد ، راض بالألم فى سبيل المعبود • انى لموقن أن تلك الآلاف المؤلفة التى شيدت الاهرام ، ماكانت تساق كرها كما يزعم هيرودوت الاغريقى عن حماقة وجهل ، وانما تسير الى العمل زرافات وهى تنشد نشيد المعبود ، كما يفعل أحفادهم يوم جنى المحصول » •

« هذه العاطفة عاطفة السرور بالألم جماعة ••• عاطفة الصبر الجميل والاحتمال الباسم للأهوال من أجل سبب واحد مشترك • عاطفة الايمان بالمعبود والتضحية والاتحاد فى الألم بغير شكوى ولا أنين •• هذه هى قوتهم » •

فالوحدة بين أبناء هذا الشعب وحدة تقليدية عرفها خلال تجارب التاريخ الطويلة ، خلال آلاف السنين وآلاف المواقف • وثورة ١٩٥٢ تجسد هذا المعنى تجسيدا قويا فكما اتجهت الثورة الى أن تكون ثورة فلاحين أولا ، اتجهت أيضا الى أن تكون ثورة تعتمد على الوحدة القومية الشاملة الحاسمة • لقد عرفت الثورة روح الشعب وتاريخ الشعب ، ولم تتسامح فى الدفاع عن مبدأ الوحدة القومية بين صفوف الشعب ، لقد دافعت عن هذا المبدأ دفاعا مجيدا لأنها تعرف أنه سر هذا الشعب وسر موهبته وقوته •

والمعنى الثانى الذى أحسه الحكيم ولمسه فى ذلك الزمن البعيد هو معنى التحول ، فاذا كان الفلاح فى الماضى يعبد خوفو ومن أجل

ذلك بنى الأهرام ، تلك المعجزة التى قال عنها « موريه » عالم الآثار الفرنسى « انها حلم فوق مستوى البشر قد تحقق مرة على هذه الأرض ، ولكنه لن يعود أبدا » ... اذا كان الفلاح القديم يعبد خوفو ، فالفلاح الجديد سوف يعبد « التقدم » ... تلك الفكرة الجديدة التى سيعاملها فلاحنا معاملة دينية ، سيصلى لها ويغنى لها .

ومادامت فكرة التقدم هى المعبود الجديد للفلاح فلابد أن يتحول من الأرض : ذلك الاله الذى يشرك به طيلة آلاف السنين ، الى أدوات أخرى من أدوات الحضارة ، وعلى رأسها المصنع .

ولذلك فقد كتب توفيق الحكيم فى عودة الروح منذ أربعين سنة تقريبا أول صرخة فى أدبنا كله تتنبأ بتحول هذا الشعب الى الصناعة وتتنبأ بثورته الصناعية القادمة .

قال الحكيم :

« ماأعجبهم شعبا صناعيا غدا » ...

وقد جاءت هذه الصرخة الأولى فى وقت لم تكن تعرف فيه مداخن المصانع وكان عدد العمال عندنا قليلا جدا بعد أنقضى كرومر وخلفاؤه على الصناعات الناشئة فى مصر باغلاق جميع المصانع وتصفيتها .

وبذلك يسجل توفيق الحكيم فى حلمه القديم معنى آخر تجسد فى ثورة ١٩٥٢ ، فالى جانب أن هذه الثورة ثورة فلاحين فهى أيضا ثورة صناعية : ستقلب الضفاف الوديعة الهادئة الى مداخن وتفتح الطريق أمام الفلاح القديم ليكون عاملا لأن معبوده الجديد وهو التقدم ليس بحاجة الى أهرامات وانما هو بحاجة الى مصانع .

والمعنى الثالث الذى سجله توفيق الحكيم هو معنى معروف وشائع عن عودة الروح ، ذلك أنه تنبأ بظهور « الزعيم » الذى يقود الشعب ويكشف عن قوة الحياة فيه ، ويحقق هذه القوة ويجعلها واقعا ملموسا ، فعندما كتب توفيق الحكيم عودة الروح كان الشعب

خاملا فى نظر الذين ينظرون من السطح ، ولكن الحكيم كفنان ينظر الى الأعماق البعيدة ، كان يحس أن الشعب محتفظ بكل قواه ، محتفظ بحيويته وروحه ، ولكن ينقصه شيء •

ماهو ؟

« نعم ينقصه ذلك الرجل منه الذى تتمثل فيه كل عواطفه وأمانيه ويكون له رمز الغاية •• عند ذلك لاتعجب لهذا الشعب المتماسك المتجانس المستعذب المستعد للتضحية اذا أتى بمعجزة أخرى غير الأهرام »

هذا هو حلم توفيق الحكيم بالثورة •• انها ثورة فلاحين ، تعتمد على الوحدة القومية اعتمادا كاملا ، بدون انقسام ولا صراع داخلى ، وهم فلاحون يتطلعون الى الصناعة كمثل أعلى جديد ، والذى يقودهم هو « واحد منهم تتمثل فيه كل عواطف الشعب وأمانيه » •

ولم يكن غريبا بعد ذلك أن يقرأ جمال عبدالناصر هذه الرواية قبل الثورة وأن يتجاوب معها ويتأثر بها •

الحلم الثانى بالثورة هو حلم أديب كل كتابته أحلام ، فهو أديب رقيق شفاف ليس فى أدبه غلظة الواقع ولا خشونته ، ذلك هو يحيى حقى ، ففى قصته المشهورة « قنديل أم هاشم » والتى كتبها منذ عشرين سنة تقريبا يعالج مشكلة رئيسية كانت من أهم المشكلات التى درستها ثورة ١٩٥٢ وفكرت فيها طويلا ، هذه المشكلة هى ضرورة الملاءمة بين الحضارة الحديثة وبين شخصيتنا الخاصة فلابد أن تنبع المبادىء الجديدة من شخصيتنا وبيئتنا •

لقد عبر يحيى حقى عن هذه الفكرة تعبيرا فنيا رائعا ، فالقصة كلها تدور حول « اسماعيل » وهو شاب ولد فى السيدة زينب ، وتربى فى بيئة شرقية وبعد أن أتم « البكالوريا » أرسله أبوه التاجر ليتعلم الطب فى أوروبا ، وذلك بعد أن خطب فاطمة ابنة عمه ، ويدور

الصراع حول شخصية « اسماعيل » فى داخل الشخصية وخارجها .
ففى لندن تواجهه الحضارة الغربية الحديثة ممثلة فى فتاة اسمها
« مارى » ، انها تدعوه الى نسيان شخصيته كعربى شرقى وتغريه
بالذوبان فى الحضارة الجديدة ، وهى حضارة مادية حسية ، وهذا
الطابع الذى يطبع حضارة الغرب سببه العلم والتقدم العلمى ، وشيئا
فشيئا ينسى اسماعيل شخصيته القديمة : شخصية السيدة زينب ،
ويكتسب شخصية أوروبية تؤمن بالغرب والعلم ، ولا شىء غير
الغرب والعلم ، ويعود اسماعيل الى السيدة زينب بأفكاره الجديدة
انه يريد أن يهدم الواقع ، أن يفرض العلم الحديث ومبادىء الحضارة
الغربية فرضا على بيئة السيدة زينب : رمز الشرق وحضارة الشرق .
ولذلك يقوم بتحطيم قنديل السيدة زينب . لأن الناس يستعينون
بزيته لمعالجة عيونهم وهو يقطع صلته بفاطمة بنت عمه فلم تعد
تناسبه أو تتلاءم معه ، ثم يحاول أن يعالج الناس علاجا علميا خالصا .
وتكون النتيجة هى انقطاع الصلة بينه وبين السيدة زينب ، بل
ونشوء العداء بينه وبين بيئة السيدة زينب ، وينصرف الناس عن
عيادته فلا يذهبون اليه ويجد نفسه فى غربة روحية كاملة هى أقسى
عليه من أى افلاس أو فشل . أما أفكاره العلمية وايمانه المطلق بالغرب
فلم ينفعاه بشىء . وأخيرا وجد الحل ، لقد عاد الى الاتصال
بالواقع عاد الى الاعتراف بروح الشرق وشخصية الشرق ، وفتح عيادته
من جديد وخطب بنت عمه مرة أخرى ، وأخذ يعالجها بالطريقة القديمة
أى بزيت قنديل السيدة وليس هذا العلاج فى القصة علاجا واقعيا
وانما هو مجرد رمز العودة الى الواقع والاعتراف به والبدء منه .

والقصة كلها ترمز الى أن الثورة « على » الواقع يجب أن تبدأ
« من » الواقع ، فلا يمكن فرض مبادىء على هذا الواقع من خارجه ،
ولا يمكن فرض حضارة الغرب ، ومبادىء التقدم العلمى عليه فرضا
تعسفيا ، بل لابد من الاحتفاظ بشخصية الواقع واستخلاص ما يتلاءم
معها ، وما ينبع منها ، ويأخذ طابعها .

فالقصة كانت تعبيرا عميقا عن رفض الثورة الجاهزة المفروضة ، وفى نفس الوقت كانت حلما بثورة تؤمن بالأفكار العلمية ومبادىء الحضارة الحديثة ، بشرط أن تأخذ هذه الثورة طابعنا الخاص وتحتفظ بشخصيتنا الخاصة ، وتنبع من حياتنا وتقاليدنا ، تنبع من السيدة زينب التى هى رمز للمجتمع العربى فى مصر • على أن يكون الهدف الأساسى هو نقلنا الى مجتمع يقوم على أسس علمية عصرية أصيلة •

وهذه الفكرة أو هذا الحلم تجسدا فى مبدأ من أعز مبادىء ثورة ١٩٥٢ ••• مبدأ البداية من الواقع • فالخيط الذى يربط ثورتنا بالواقع هو خيط قوى والنتيجة هى أنه كما تأثر « واقعنا الثورى » بالمبادىء فقد أثر هذا الواقع فى المبادىء ، واستبعد منها أشياء وأضاف اليها أشياء جديدة •

والحلم الثالث حلم حزين ، حلم يكاد يكون كابوسا مخيفا ، ذلك هو حلم نجيب محفوظ ، فالروايات المتعددة التى كتبها نجيب محفوظ قبل الثورة تدور كلها حول الطبقة الوسطى الصغيرة فى نوعين من هذه الطبقة : نوع يحاول الصعود الى الطبقة الأعلى ويدفع فى سبيل ذلك ثمنا باهظا ، ونوع يحاول المحافظة على « مجرد الحياة » •

أما النوع الأول فيحاول الصعود الى أعلى عن طريق التسليم فى الشرف والكرامة واستخدام الرشوة والحياة بلا مبدأ ، وقد يصل الشخص الى أعلى فعلا كما وصل بطل رواية نجيب الشهيرة « القاهرة الجديدة » ولكن ثمن الوصول هو أنه كان يقدم زوجته للوزير الذى كان سيعمل معه • أى أنه أصبح عضوا فى الطبقة العليا من المجتمع لا عن طريق الكفاية ولكن عن طريق التنازل عن انسانيته وشرفه •

وقد يضع البطل قدمه على أول الطريق فى عالم الطبقة العليا • ولكنه ينهار بعد أن يكتشف أن وصوله كان على حساب أشياء غالية جدا • فبطل «بداية ونهاية» حسنين هو الوحيد من بين اخوته الذى

يدخل الكلية وهى هنا الكلية الحربية ... ويصبح ضابطا .. ولكن كيف دخل الكلية ومن أين وجد تكاليف التعليم ؟ وجدها من انحراف شقيقه « حسن » الذى يعمل تاجر مخدرات ووجدها من عمل أخته نفيسة كخياطة . ثم سقوطها بعد ذلك نتيجة لضغط الحياة عليها حيث فقدت شرفها تماما ، وفوجىء « حسنين » وهو ضابط بأخيه « حسن » يطارده البوليس بتهمة التجارة فى المخدرات . وفى قسم البوليس وجد أخته مقبوضا عليها فى بيت سرى .

كان حسنين يريد أن ينفصل عن ماضيه ويترك بهية التى خطبها وهو تلميذ ، ليتزوج بنت « البيك » التى تعرف الرقص وتتكلم لغة عربية مكسرة والتى تناسبه الآن . ولكن الماضى يطارده ويلطخ ثيابه ، ولذلك فانه يسقط ينهار وهو يحاول عبور المسافة بين طبقته والطبقة الاجتماعية الأعلى .

والنوع الآخر فى قلب الطبقة الوسطى التى يعبر عنها نجيب محفوظ يحاول المحافظة ، مجرد المحافظة على حياته وكان يجد ذلك عسيرا كل العسر ، كان البعض يمرضون بالسل ويموتون ، والبعض يجوبون المدن فى أعمال صغيرة ويتاقضون مرتبات صغيرة . تقضى على آمالهم فى مجرد الحياة .

ان قصص نجيب محفوظ اجمالا تقدم « مسحوقا اجتماعيا » اسمه الطبقة الوسطى . ونشعر أنها تقدم فى هذا المسحوق نقيض المجتمع الاشتراكى ، ففى المجتمع القديم الذى يعبر عن مأساته نجيب محفوظ تنعدم تماما الفرص المتكافئة ، وتنتشر الأزمات النفسية والانحرافات الاجتماعية ، ذلك لأن كل انسان يبحث عن مكان فى مجتمع متنافس متصارع ، يبرر ويعترف بالانتهازية ، ويبرر ويعترف بالتجارة فى الشرف والقيم الانسانية فى سبيل الوصول الاجتماعى . مجتمع غير اشتراكى وغير انسانى .

انه نفس المجتمع الذى يصفه أحد الكتاب الاشتراكيين بقوله :

« ان أحسن النـــاس فى هذا المجتمع هم أسوأ النـــاس فى الوقت نفسه ، لأن الذى يصل الى وضع حسن فيه انما يصـــل اليه بعد أن يســحق فى طريقه عشرات من الناس ويسرق منهم فرص النجــاح والتقدم » .

ومن شدة حرص نجيب محفوظ على تقديم صورة «بالميكرسكوب» لهذا المجتمع ، ومن شدة حرصـــه على تقديم هذه الصـــورة القاتمة الكئيبة للحياة . نشعر تماما أن نجيب محفوظ يحس بالضـــيق الــكامل من المجتمع الذى يعبر عنه ، وهو يرفض هـــذا المجتمع ويدعو الى مجتمع جديد ، مجتمع تنتهى فيـــه هذه الأمراض والانحرافات ، وهى لن تنتهى الا اذا انتهت أسبابها .

وهذا هو ما أخذت الثورة فى تحقيقه . فقد قضت على أسباب الانحراف النفسى والاجتماعى ، والصورة الجديدة للمجتمع صورة تذيب فوارق الطبقات ، ولا تجعل الربح هو المبـــدأ الوحيد الذى يحترمه الانسان ويجرى وراءه ، بل برزت مبادىء انسانية أخـــرى يخدمها الانسان ويهتم بها . ولم يعد هناك فرصة لهؤلاء الصـــاعدين الى الطبقات الاجتماعية العليا الذين يدفعون ثمن ذلك من الأخلاق والمبادىء الانسانية ويسرقون من غيرهم فرصة الحياة .

ان المجتمع الجديد الذى تخلقه الثورة هو نقيض المجتمع الذى عبر عنه نجيب محفوظ ، وهو العلاج الصحيح له .

هذه ثلاثة أحلام لثلاثة أدباء ، كانت الثورة أملا من آمالهم بل كانت أمجد آمالهم . وليسوا هم وحدهم من بين الأدباء الذين حلموا بالثورة وتمنوها . فلقد شارك عدد كبير من أدبائنا فى هـــذا الحلم وعبروا عنه .

فهذه النماذج الثلاثة هى نماذج هامة . ولكنها ليست النماذج الوحيدة لهذا الحلم الذى نعيش فيه الآن فى محاولة كبرى لتحقيقه .

أدب الثورة ... أين هو ؟

من هو الأديب الثورى الاشتراكى ؟ من هو الأديب الذى يتجاوب صادقا مع مايحدث فى حياتنا من جهاد وعرق فى سبيل التقدم ؟ من هو الأديب الذى نستطيع أن نقول عنه انه « ابن الثورة » هى التى ربته وأرضعته وهو الآن يفهمها ويعبر عنها ويرعى أفكارها ومبادئها ؟

ان توفيق الحكيم وسلامة موسى وطه حسين ويحيى حقى ونجيب محفوظ وبيرم التونسى ومحمود البدوى قد كتبوا عن الثورة ، وحلموا بالثورة ، ولكننا لانستطيع أن نقول عن واحد منهم انه ابن الثورة ، فهؤلاء الأدباء بالأحرى هم آباء الثورة .. فقدبشروا بها وحضوا عليها وهيئوا لها الاذهان بما نشروه من أفكار ساخطة ثائرة . ومعظمهم ، ان لم يكن كلهم كانوا قد تكونوا بصورة نهائية عندما قامت الثورة ، فأين هو اذن الاديب .. ابن الثورة ؟

فى الحقيقة لانستطيع ان نطلق هذا الوصف على أديب معين ، فمازال هذا الأديب حلما من الأحلام ، نستطيع أن نتصوره ونتخيله ولا نستطيع أن نشير الى واحد بعينه ونقول هذا هو الأديب المطلوب .

والاديب الثورى الاشتراكى الذى نريده ونحلم به ، هو الذى يفهم واقع بلاده . ويقبل على دراسته اقبالا عميقا سواء كانت هذه الدراسة عن طريق القراءة أو عن طريق التجربة العملية ، ففى أواخر القرن الماضى ظهر فى أمريكا الشاعر الكبير والت وايتمان . ولم يتردد ويتمان فى الاقتراب من الشعب ومحاولة معرفته بكل الطرق والوسائل ، حتى لقد سار على قدميه ٨٠٠٠ كيلو متر خلال القرى والمدن والموانى والجبال والوديان، كل ذلك لكى يشاهد الواقع ويتعلم من الواقع ، ويدرس الطبيعة وينفعل بالناس ، ولكى يكتب بعد ذلك عن المجتمع كتابة صادقة متألقة فكيف

يستطيع أديب محب للشعب مثله أن يقتنع بحياة الفلاح أو حياة العامل مالم يشاهد بنفسه مايبذلونه من مجهود كبير عنيف . هل كان باستطاعته لو لم يعش هذه التجارب كلها أن يقول :

« ان هدفى من الكتابة هو تعليم الناس كم هى عظيمة حياتهم »

لقد اكتشف العظمة والبطولة فى حياة الناس العاديين ، الذين هم غالبا جاهلون بهذه العظمة وهذه البطولة . ولذلك استطاع ويتمان أن يكون أديبا ثوريا مؤثرا فى ضمير شعبه وفى ضمير العالم كله الى حد بعيد ، لامجرد موهبة تجيد الغناء وكتابة الالفاظ الجميلة .

وأديب آخر هو أنطون تشيكوف كانت صلته بالناس عملا مقدسا مثل القراءة والتأمل والصلاة . كل هذا برغم أن تشيكوف كان من أحرص الادباء الذين عرفهم التاريخ على وقته . كان غاية فى الدقة والنظام وكراهية الاندماج السطحى فى المجتمعات الثرثارة . ولكن هذا الذى يقدس الدقائق فى حياته ويحاول دائما أن يستغلها استغلالا صحيحا ، لم يتردد فى الذهاب الى جزيرة « سخالين » فى سيبيريا . وكان مصدورا ينزف الدم من رئتيه ومع ذلك لم يتردد فى التوجه الى الجزيرة برغم البرد القارس والجليد والأوبئة التى كانت منتشرة فى تلك المنطقة الروسية النائية . كان هدفه من هذه الزيارة أن يعاشر الناس هناك ويعرف آلامهم التى يعانون منها ، ثم يكتب عنهم . وعندما كتب بعد ذلك لم يكتب عملا فنيا .. لم يكتب قصة و لامسرحية لانه وجد هذه المشكلات أكبر من اى عمل فنى ، ولذلك نقل الواقع كما هو وكتب عن الجزيرة كتابا مليئا بالأرقام والدراسة الموضوعية الدقيقة : كم عدد المرضى بينهم ، نسبة الوفيات بين الاطفال ، نسبة التعليم .. كل شىء كتبه هكذا بصراحة ووضوح .. كتبه على « بلاطة » ليعرف الناس الحقيقة ويتأثروا بها . كل صغيرة وكبيرة عن هؤلاء الناس كتبها تشيكوف بعد أن درسهم وعرفهم ودخل بيوتهم وسهر معهم واستمع اليهم .

فهل عندنا أديب ذهب الى الصعيد وكتب عن قراه وفلاحيه بهذه

الحماسة والتصوف ؟ هل عندنا أديب عاش فى البرارى النائية وكتب عن حياة أهلها واختار نماذجه الانسانية من هناك ؟

على أن الأديب الثورى الاشتراكى هو الى جانب ذلك الذى يعرف تاريخ بلاده معرفة عميقة وفى اعتقادى أن أدباءنا والشبان منهم على وجه خاص لايعرفون عن تاريخنا الا القليل الذى لايصلح الا لنجاح صاحبه فى المدارس الثانوية • وهذا موقف خاطىء تماما • فلن يستطيع الاديب أن يسيطر على ضمير شعبه ويؤثر فيه بدون أن يعرف ماذا حدث لهذا الشعب خلال التاريخ • وما قابله من مشاكل وعقبات •

لقد كان المفكر الانجليزى المتحرر جودوين صاحب كتاب «العدل السياسى » يصرخ فى تلميذه ومريده الشاعر « شيللى » قائلا :

« ان جهلك بالتاريخ هو من أعظم أسباب أخطائك فى الحكم على الاشياء » •• فكيف اذن يكون موقف الاديب الاشتراكى الذى لايعرف تاريخ بلاده ثم يريد بعد ذلك أن يخدمها عن طريق الأدب ؟ انه سوف يكون جاهلا بطبيعة شعبه ومزاجه بل سوف يكون عاجزا عن التأثير فى هذا الشعب • انأديبا ثوريا معروفا هو جوركى يقولفى صراحةووضوح :

« الأديب هو اللسان العاطفى المعبر عن بلاده ، وهو بمثابة الأذن والقلب منها ، انه صوت الزمن ، لذلك كان عليه معرفة أكثر ما يمكن معرفته ، وكلما كان محيطا بالماضى كلما كان أقدر على فهم الحاضر وعلى تتبع الطابع الثورى لعالمنا المعاصر فى قوة وعمق ، وادراك مدى ماحققه هذا الطابع من أعمال ، فمن الضرورى اذن بل من المحتم على الأديب أن يحيط بتاريخ الشعوب وأن يتعرف على آرائها فى مسائل الاجتماع والسياسة » •

أى أن جوركى يطالب الأديب الثورى لا بمعرفة تاريخشعبه وحسب ولكن بمعرفة تاريخ كل الشعوب •

ولكننا هنا نعانى من « الفقر » الشديد لدى أدبائنا فى الوعى

بالتاريخ • ان تاريخنا خلال السنوات الثلثمائة الاخيرة ملىء بالشخصيات العامة الجديرة بأن تكون مادة للفن ســـواء كانت هذه الشــــخصيات من الشعب ومع الشعب أو كانت ضده ومفروضة عليه ، وخلال هـــذه الفترة أيضا هناك عشرات المواقف الرائعة الجديرة بالتســجيل الفنى ولكنــك لاتقرأ رواية واحدة عن عصر المماليك ولا عن عصرمحمدعلى•ولاحتىعن ثورة عرابى برغم مافى هذه الثورة من غزارة غير عادية فى الشخصيات والمواقف التى تصلح مادة رائعة لاعمال غنية خصبة •

اننا نحب الشعب اليوغوسلافى ونعجب به من خلال رواية «جسر على نهر درينا » للروائى العظيم « اندريتش » لقد دخل هذا الفنـــان الاصيل الى اعماق تاريخ بلاده وكتب رواية تقع حوادثها خلال أربعمائة سنة واستطاع أن يعبر عن كل مافى هذه المرحلة الطويلة من طغيـان ، ومقاومة للطغيان وشعر وحب • وناس سكارى وناس ذوى كبرياء ، يدافعون عنها ولو بحياتهم •

وكل هذه الكائنات والقوى الانسانية كانت تتحرك خلال اطار من تاريخ الشعب اليوغسلافى بعد أن حوله هذا الفنان الكبير الى شـــــعر وموسيقى وفن رفيع •

وهذا أيضا ما فعله أديب اسبانيا وشاعرها العظيم لوركا • لقد كتب مسرحية جميلة عذبة عن فتاة اسبانية اسمها « ماريانا » قتلها أنصار الملك سنة ١٨٥٠ لانها كانت تطرز راية اسبانيا وتكتب فوقها كلمة « الحرية » وكانت هذه الراية هى راية الثوار دعاة الجمهورية • وأصبحت ماريانا التى كانت مجرد اسم عادى بسيط فى صفحات التاريخ أنشودة يرددها الاسبان بعد مسرحية لوركا ، بل لقد صارت أنشودة يرددها الناس فى أنحاء العالم من خلال هذه المسرحية التى تموج بالموسيقى الحلوة دفاعا عن الحرية وحبا للحرية •

أليس فى تاريخنا شىء من هذا يلهم الشعراء وكـــــتاب المسرح والروائيين ؟؟

ألا يمكن أن تكون شخصية « أم صابر » مادة فنية يمكن صهرها وتعديلها لتصبح عملا فنيا كبيرا مثل ماريانا الاسبانية الاندلسية ؟؟

لقد اكتشف صلاح عبد الصبور شخصـــية زهران الفـلاح الذى شنق فى دنشواى ولكنه اكتفى بأن يجعل زهران مادة لقصيدة غنائيــة حلوة ، دون أن يجعل منها مثلا مادة لمسرحية شعرية كبيرة .. وكتب أحمد حجازى قصيدة عن مذبحة القلعة ، ولكنه لم يفكر أيضا فى أن يجعل هذه « المذبحة » شيئا أكبر من قصيدة جميلة ، لم يفكر فى أن يستغلها كمسرحية شعرية غنية بما فيها من مادة خصبة عميقة .

ولن يوجد الأديب الثورى الاشــتراكى الا اذا قرأ ودرس الأدب الشعبى بما فيه من مواويل وأساطير وألوان مختلفة من الحكمة فقد أثبت النقاد أن كبار أدباء العالم استمدوا كثيرا من نماذجهم الانسانية الاساسية من الادب الشعبى والاساطير الشعبية . شيكسبير استمد شخصية عطيل من الحكايات الشعبية كما استمد شخصية هاملت أيضا من الاســـــاطير الشعبية التى أثيرت حوله . فبذرة هاتين الشخصـــيتين الفريدتين فى عالم الادب الانسانى بذرة شعبية وقد تحولت هذه البذرة على يد شيكسبير الى شجرة ضخمة عميقة الجذور واسعة الظـــلال ... ولكن البذرة الاولى كانت من فن الشعب .

وجوته الأديب الالمانى الـكبير اســتمد شخصـــية « فاوست » من الاساطير الشعبية أيضا كما استمدها من نفس المنبــع الاديب الانجليزى « مارلو » الذى كتب عن « فاوست » قبل « جوته » ، والاديب الاسبانى « سرفانتس » استمد نموذجه الشهير « دون كيشوت » من الأســـاطير الشعبية الاســـبانية التى سخرت كثيرا من أوهام الفرســـان قبل أن يظهر سرفانتس ليجعل من هذه النغمة الشعبية سيمفونية كبيرة عجيبة .

فماذا فعل أدباؤنا فى هذا المجال ؟ ان القليل جدا من أعمالنا الادبية سواء فى الرواية أو فى المسرح أو فى الشـــعر هى التى استوحت الفنون الشعبية واستفادت منها . هناك على سبيل المثال محاولة ذكية خصبة هى

المحاولة التى قام بها زكريا الحجاوى عندما كتب ملحمة « أيوب المصرى » وقدمها للاذاعة فى عمل فنى ناجح استمده من أساطيرنا الشعبية •

ولست أدرى لماذا لايفعل الشعراء والروائيون عندنا الشيء نفسه•• لماذا لايستمدون قصصهم وقصائدهم من هده الاساطير الشعبية ، ان عندنا عشرات من هذه الاساطير يمكن أن يكون كل منها بذرة ناضجة لعمل فنى كبير فى ميدان الرواية والمسرحية النثرية والمسرحية الشعرية على السواء •

لقد سمعت أن عبد الرحمن الشرقاوى يكتب عن « الحسين » شهيد كربلاء •• وهذه فكرة جميلة رائعة فقد امتزجت شخصية الحسين التاريخية بشخصيته فى الاحساس الشعبى والأساطير الشعبية • وان كنت أتمنى أن يكتب الشرقاوى وغيره من الشعراء مسرحيات عن أيوب وأدهم وغيرهما من أبطال قصصنا الشعبى القريبة الى وجدان الشعب وذوقه وضميره •

ولن يوجد الاديب الثورى الاشتراكى الجاهل أو المحدود الثقافة أو الذى يعتمد على موهبته فقط ، فالاديب الثورى الاشتراكى لابد أن يقرأ أكثر مما ينام أو يأكل •• ينبغى أن يقرأ فى شتى فروع المعرفة الرئيسية• فلا أتصور أديبا ثوريا اشتراكيا لم يقرأ تولستوى كله وديستو يفسكى كله وتشيكوف وابسن وجوركى والحكيم وبرنارد شو كلهم • يجب قراءة هؤلاء الادباء العالميون قراءة جيدة وجدية فى نفس الوقت • فهذا الاستيعاب العميق للأدب الانسانى هو وحده الذى يساعد الأديب على الوصول الى نظرة انسانية واسعة عميقة ـ وعلى التصور الرحب للمشكلات الانسانية فى كل مكان وفى أى مكان وعلى بلوغ مايمكن ان نسميه بالعاطفة الانسانية الشاملة ، والتى لايمكن الحصول عليها الا بوسائل متعددة على رأسها الثقافة العميقة الواسعة • ولا ثورة أو اشتراكية بدون نظرة شاملة للانسان

وحب شامل للانسان وعندما يصل الأديب الى هـــذه النظرة الشـــاملة الواعية •• عندها سوف يجد أبعد آمال الثورة الاشـــتراكية تتحقق •• وبدون هذه النظرة الشاملة الواســـعة ســوف تكون ثورية الأديب مجرد « فرقعة بمب » وسوف تكون اشتراكيته مجرد « أضغاث أحلام » عن الخير، فالنظرة الانسانية وحدها هى قوة الأديب ـ الاشتراكى الثورى على فهـم الثورة وفهم الاشتراكية •

حرب الإبادة الثقافية

أعلن الاستعمار فى آسيا وافريقية منذ البداية حربا أخطر من الحرب الاقتصادية والارهاب العسكرى ، تلك هى حرب الابادة الثقافية الشاملة • وقد كان الهدف من هذه الحرب هو طمس الشخصية الآسيوية ، والشخصية الافريقية طمسا نهائيا ، حتى تبقى افريقية وآسيا أسيرتين لعقدة النقص الكبرى أمام الدول الاستعمارية •

وقد لجأ الاستعمار الى وسائل علمية مدروسة للوصول الى هدفه ، واشترى العلماء والمفكرين والمغامرين ليرسموا له الخطط المناسبة لهذه الحرب العنيفة •

وكانت المعركة الأولى التى دخلها الاستعمار بنجاح هى محاربة مبدأ التعليم حربا لارحمة فيها • ذلك لان الجهل هو أنسب البيئات لانتشار الأوبئة المعطلة للحضارة ، فالجهل وحده هو الذى يسمح بسيطرة عصبيات القبائل ، وفهم الحياة على أساس من الخرافات والأساطير بدلا من الفهم العلمى الصحيح •

فبحسب احصائية علمية صدرت سنة ١٩٥٨ تبين أن ٩٠ ٪ من سكان الجزائر أميون ، وأن هناك حوالى مليونين من الاطفال فى سن التعليم لايتردد على المدارس من بينهم سوى مائتى ألف طفل أى بنسبة أقل من الربع • وهكذا انتشر الجهل فى الجزائر التى كانت فيما مضى ـ كما قال الكاتب الفرنسى « بولارد » : « تضم معاهد علمية عظيمة الشأن قبل دخول الاستعمار الفرنسى » أما بعد دخوله سنة ١٨٣٠ فقد بدأت المحنة وامتدت حتى أصبح السعى وراء العلم لايتم « الا فى السر » بعد أن كان العلم منتشرا فى جميع أنحاء البلاد مثل الماء والهواء ، تردد آلاف المعاهد والمساجد أصداءه فى القرى والمدن على السواء •

والذى حدث فى الجزائر حدث فى جميع أنحاء البلاد التى خضعت للاستعمار فى آسيا وافريقية • فنسبة الأميين فى افريقية جنوبى المنطقة العربية تتراوح بين ٩٠٪ و ٩٥٪ من عدد السكان • وهذا مثال واحد له عشرات الأمثلة المشابهة ولكن الاستعمار لم يكن باستطاعته أن يغلق المدارس ومعاهد التعليم نهائيا ، فهو بحاجة الى « كادر » من الموظفين يقوم بالاعمال الصغيرة فى البلاد الخاضعة للاستعمار ، ولذلك تم فتح بعض المدارس هنا وهناك ، وكانت هذه المدارس بالطبع ميدانا للمعركة الثانية التى خاضها الاستعمار وهى معركة اللغة •

لقد أخذ الاستعمار موقفا واضحا عنيفا ضد اللغات ، وعمل على سحق هذه اللغات ونشر لغة الدولة المستعمرة ، واذا عدنا الى مثال الجزائر وجدنا أن لغة التعليم الاساسية هى الفرنسية ، ولم يبدأ السماح بتعليم اللغةالعربية فى الجزائر على أضيق نطاق وبطريقة شكلية تماما الا سنة ١٩٤٧ ، أى بعد الاستعمار الفرنسى للجزائر بأكثر من مائة سنة •

وكانت نتيجة هذا الاسلوب فى التعليم أن ظهر فى الجزائر عدد من المثقفين الذين لايعرفون العربية وانما يتكلمون ويكتبون بالفرنسية ،وكان من بين هؤلاء روائيون عظماء مثل محمد ديب ، وشعراء عظماء مثل مالك حداد ، وفلاسفة عظماء مثل مالك بن نبى •

ولكن اللغة الفرنسية ، لم تجعل روح هؤلاء المفكرين والفنانين فرنسية ، فعندما اكتشفوا المشكلة وعرفوا حقيقة المأساة اندفعوا بكل قواهم الفكرية والفنية للارتباط بقضية بلادهم •

وقد عبر الشاعر الجزائرى مالك حداد عن هذه المشكلة بل عن هذه المأساة بقوله مخاطبا الشاعر الفرنسى أراجون :

« أنا أرطن ولا أتكلم •

ان فى لغتى لكنة •

أننى معقود اللسان ، أنا لاأغنى ، لاأغنى •• فلو كنت أعرف الغناء لقلت شعرا عربيا • نعم ياأراجون • هذه هى مأساة اللغة •• لو كنت

أعرف الغناء لقلت شعرا عربيا ، لقد شاء الاستعمار أن يكون فى لسانى آفة ، أن أكون معقود اللسان .... لاتلمنى ياصديقى ، اذا لم يطربك صداحى » .

هكذا يعبر هذا الشاعر عن المأساة ، فقد فرضوا عليه ان يتعلم الفرنسية ، وحرموه أن يتعلم لغته القومية ، لغة أمه وأبيه . ولغة الفلاحين الجزائريين الذين يعملون بصمت وصبر فى أرض الجزائر .

وهكذا فعلوا مع تلك المئات القليلة من الشباب الذين سمحوا لهم بأن يتعلموا فى الجزائر .

وكان الهدف من وراء محاربة اللغة العربية فى الجزائر هو قطع الصلة بين حاضر الجزائر وتراثها القديم ، والتمهيد فى نفوس المواطنين لقبول الفكرة الاستعمارية التى تقول ان « الجزائر جزء من فرنسا » ، وللوقوف فى وجه أية صلة بين الجزائر والبلاد العربية على اعتبار أن هذه الصلة هى تقوية ودعم لشخصية الجزائر العربية الحرة المستقلة ، لاالجزائر المستعمرة الفرنسية التى تخضع لاشد ألوان الاستغلال من جانب الفرنسيين ان الذين نهبوا الارض قد نهبوا اللغة أيضا وفى نفس الوقت ، انهم يحقدون على كل ماهو أصيل فى الجزائر لانه يتحداهم ويقف فى وجوههم .

وحاول الفرنسيون أيضا الى جانب فرض اللغة الفرنسية أن يدعموا لغة البربر فى الجزائر وحاولوا أن يخلقوا لها قواعد لأنها لغة غير مكتوبة ، وأن يعملوا على احيائها وبعثها لتؤدى الهدف نفسه أى ابعاد الجزائر عن المنطقة العربية وقطع الصلة بينها وبين تاريخها وتراثها .

ولقد كان مما حير الاستعمار الفرنسى وأوقعه فى ارتباك شديد أن الأدب الجزائرى والفكر الجزائرى المكتوبين باللغة الفرنسية يحملان سخطا عميقا على الاستعمار الفرنسى ويعبران بقوة عن آمال الجزائريين فى الحرية والاستقلال والعودة الى الثقافة العربية التى هى ثقافة الجزائر الحقيقية الأصيلة .

ولقد قال احد النقاد الفرنسيين المتعاطفين مع الثورة الجزائرية عن رواية « نجمة » للكاتب الجزائرى « كاتب ياسين » : « يجب » أن نعتبرهذا الكتاب رواية عربية مترجمة الى اللغة الفرنسيةلا لأن أبطالهاعرب،ولا لأن أحداثها تجرى فى أرض عربية ، ولا لان موضوعهـــا هو الآلام التى يتحملها العرب فى الجزائر والآمال التى تملأ صدورهم ، بل أولا وقبل كل شيء لان العقل الذى أنجبها عقل عربى له أسلوبه الخاص فى كل شيء ، فى النظر الى الامور ، فى الاحساس بالمشكلات فى معاناة الحـــياة ، بل حتى فى تصور الزمان والمكان » .

ولكن جهود الاستعمار للقضاء على اللغة العربية لم تكن محدودة بالجزائر ففى مصر بدأت محاولات قديمة للقضاء على اللغة العربية قضاء تاما ، وقد بدأت هذه المحاولات على يد المستعمرين وأعوانهـم فقد كتب القاضى الانجليزى « ولمور » الذى كان يعمل فى احدى المحاكم المصرية سنة ١٩٠٢ كتابا بعنوان « لغة القاهرة » وقد حاول فى هذا الكتاب أن يثبت أن القاهرة لها لغة خاصة ، لامجرد لهجة من اللهجـــات العربية ، وأن لغة القاهرة هذه لها قواعد وأصول • وحاول بالفعل أن يحدد هذه القواعد والاصول وانتهى بعدذلك الى المطالبة باتخاذ هذه « اللغة القاهرية » لغة للعلم والأدب والثقافة عموما بدلا من اللغة العربية المعروفة •

وفى سنة ١٩٢٦ قام مهندس انجليزى كان يعمل فى مصر أيضـــا هو وليم ولكوكس بالدعوة الصريحة الى ترك اللغة العربية ، وقام بترجمة « الانجيل » الى اللهجة العامية ، بادئا بذلك بداية عملية فى الطريق الى ترك العربية واستخدام العامية •

ولم يكن الهدف من وراء هذه المحاولات هو هدف علمى أو فنى ، ولم يكن الهدف هو حب الشعب أو الايمان به واحترام واقعه الحى ، بل كان هدفا سياسيا واضحا فلو نجحت دعوة استخدام اللهجات العامية بدلا من اللغة العربية لاصبح فى الوطن العربى الذى يمتد من الخليج الى المحيط أو الذى يرتبط ارتباطا عميقا بلغة واحدة هى اللغة العربيـــة ، عشرات اللغات المختلفة ، وبذلك تفقد هذه المنطقة عاملا هاما من عوامل وحدتهـا

وارتباطها وتظل مقسمة مجزأة حتى يسهل على الاستعمار التصرف بها باعتبارها مجموعة من « الدويلات » الصغيرة العاجزة عن حماية نفسها فى أى موقف من المواقف وضد اى نوع من العدوان ٠

وقد عمل الاستعمار على اقتلاع جذور اللغة العربية من سوريا ولبنان أيضا ففرض تعليم اللغة الفرنسية على المدارس باعتبارها اللغة الاساسية ، وذلك فى الفترة التى كانت فيها سوريا ولبنان خاضعتين للاستعمار الفرنسي ٠ وما زالت آثار هذه المحاولات باقية الى اليوم ،فهناك كثيرون من المثقفين يعرفون الفرنسية ويتكلمون بها اكثر مما يعرفون العربية ويتكلمون بها فى حياتهم الخاصة او العامة ٠

وقد اتسعت الحركة المعادية للغة العربية واتسعت الحرب الموجهة ضد اللغة العربية ، فوصلت الى دعوة صريحة لتغيير الحروف العربية وكتابة العربية بالحروف اللاتينية وقد استندت هذه الحركة على حجة واحدة هى أن ذلك يجعل اللغة العربية قريبة من اللغات الاوروبية ، وهى لغات العلم الحديث والثقافة الحديثة ٠

والحقيقة التى كان يهدف اليها أصحاب هذه الدعوات هى اضعاف اللغة العربية ومحو شخصيتها وقطع الصلة بينها وبين الماضى ٠ ذلك لان اللغة عموما لايمكن أن تكون عائقا من عوائق التقدم العلمى ، خاصة اذا كانت عريقة مثل اللغة العربية ، تلك اللغة التى استوعبت كثيرا من العلوم المزدهرة فى حضارات عظيمة ، انها لغة ابن خلدون أول عالم اجتماع فى العالم ، ولغة ابن رشد مترجم ارسطو ، ومقدم ارسطو الى الغرب ، وهى لغة ابن سينا الذى كان عالما فذا من علماء الطب والفلسفة فى التاريخ الانسانى وهذه الحقائق لايعلنها العرب الافريقيون الآسيويون وحدهم ، بل هى حقائق يعلنها علماء الغرب المحايدون المخلصون أنفسهم ٠

ويمكننا أن نتساءل : هل استطاعت تركيا أن تقدم الى العالم علماء كبارا بعد أن غيرت حروف اللغة التركية من الحروف العربية الى اللاتينية؟ لقد مضى على هذه الحركة فى تركيا أكثر من أربعين سنة ، ومع ذلك مازالت الثقافة التركية ، والعلم التركى فى مستوى منخفض الى أبعد

الحدود • لماذا ؟ لان المسألة ليست مسألة حروف • ولكنها مسألة حيوية حضارية تدفع الى التقدم والحرية • وقد فقدت تركيا هذه الحيوية تحت تأثير الاستعمار الغربى وسيطرته على تلك البلاد منذ وقت طويل •

ومثال آخر نقيض لهذا المثال ، فاليابان دولة اسيوية ، وهى تستخدم لغة ذات حروف معقدة صعبة ، ومع ذلك فقد استطاعت اليابان أن تصبح دولة صناعية من الدرجة الاولى ، وأصبح التقدم اليابانى ندا آسيويا عظيما للتقدم الغربى ووصلت اليابان الى كل عظمتها الصناعية المذهلة دون أن تغير حروف كتابتها ، تلك الحروف الصعبة ، الى الحروف اللاتينية • لقد بقيت حروف اليابانيين كما هى ، ـ واستوعبت هذه الحروف كل الاصطلاحات العلمية الحديثة ، وازدادت المصانع فى اليابان يوما بعد يوم، وحصلت على سمعتها الكبيرة فى الصناعة الحديثة والتقدم الحديث •

أما الحجة الاخرى التى يعتمد عليها الذين يريدون تغيير الحروف العربية الى الحروف اللاتينية ، فهى اتاحة الفرصة للادب العربى حتى يكون أدبا انسانيا عالميا •

وأحب أن أضرب مثالا يساعدنا على ادراك مدى التزييف الكامن وراء هذه الفكرة ، هذا المثال هو شاعر الهند العظيم بل شاعر آسيا كلها وافريقية كلها ، شاعر الشرق : رابندرانات طاغور • فمن النادر أن نجد مثقفا فى أوروبا ، بل فى العالم كله لايعرف من هو طاغور ولا ما هو أدب طاغور •

ولقد سارع أدباء أوروبا الكبار أمثال أندريه جيد الى تقديم أدب طاغور الى أوروبا مع عاطفة عميقة من الحب والاحترام والتبجيل •

فبأى لغة كان طاغور يكتب شعره وأدبه ؟

لقد كتب طاغور باللغة البنغالية ، لغة الاقليم الهندى الذى ولد فيه وأحبه ومنحه أرقى عواطفه • وتعلم طاغور أجمل ماتعلمه عن طريق الشعر الشعبى البنغالى • فلماذا لم تقف لغة البنغال حائلا بين طاغور وبين الوجدان الانسانى فى كل مكان من العالم ؟ لماذا لم تقف لغة

البنغال حائلا بين طاغور وبين أوروبا التى تعرف شـعره ـ وتنحنى أمام هذا الشعر العظيم ؟ • لقد كان طاغور يدرك حق الادراك محاولة الاستعمار لتحقير اللغات الآسيوية والافريقية والتهوين من شأنها وكان باستطاعة طاغور أن يكتب بالانجليزية فقد كان قادرا على ذلك كل المقـدرة • بل لقد كتب بالفعل بعض انتاجه الادبى بالانجليزية • ولكنه أصر على أن يكتب بالبنغالية أعظم أعماله الادبية الكبيرة • ومن خلال اللغة البنغالية بالذات أصبح طاغور شاعرا انسانيا عالميا •

ولذلك فان المثقفين العرب فى كل مكان ينظرون الى المحاولة التى قام بها الشاعر اللبنانى سعيد عقل باصدار كتاب عربى هو « يارا » مكتوبا بالحروف اللاتينية لابالحروف العربية نظرتهم الى عمل عدائى ضد الثقافة العربية والوطن العربى ، فهو عمل ليس له مبرر علمى ولا وطنى بحال من الأحوال •

وكانت المعركة الأخيرة فى حرب الابادة الثقافية والتى شنهاالاستعمار ضـدنا ، هى العمـل على خلق حضـارات مندثرة لشغل الأذهان بهـا عن التفكير فى الحاضر والمستقبل فعندما تبلورت فكرة القومية العربيـة واتجه أبناء الامة العربية الى تحطيم الحواجز المفتعلة بين بلادهـم التى وحدتها اللغة والارض والتراث المشترك والمصالح المشتركة والمستقبـل المشترك ، فى هذه اللحظة بدأ الاستعمار يبذل كل قواه لدعم الحـدود المصطنعة والدول القائمة داخل هذه الحدود • وذلك باحياء الاقليـات الفكرية والدينية والعنصرية وخلق صراع بين عناصر الامة المختلفة •

ففى مصر حاول الاستعمار أن يقنع المصريين بأنهم ليسوا عربا وألا علاقة لهم بافريقية وآسيا ، فهم فى رأى الاستعمار فراعنة ولا شىء غير ذلك ، ولم يكن الهدف هو اعادة مجد مصر ، بل كان الهدف هو اربا كها بفكرة قديمة وابعادها تمـاما عن الوطن العربى الذى تعتبر مصر جزءا لايتجزأ منه ••• من أرضه وثقافته وماضيه ومستقبله ، وثورته الجديدة المشتعلة •

ولعل هذه الحادثة توضح لنا هدف الاستعمار توضيحا لاشك فيـه

... ففى سنة ١٩٢٦ تقدم المليونير الأمريكى روكفلر ، وهو أحد أفراد أسرة روكفلر المشهورة باقتراح بانشاء « متحف للآثار الفرعونيـــة فى مصر يلحق به معهد لتخريج المتخصصين فى هـــذا الفن ، وقرر التبرع لانشاء المتحف والمعهد بعشرة ملايين دولار أمريكى • واشترط لمنح هذا التبرع « أن يوضع المتحف والمعهد تحت اشراف لجنة مكونة من ثمانيـة أعضاء ليس فيها سوى عضوين مصريين فقط ، على أن تظل هذه اللجنةهى المسئولة عن ادارة ــ المتحف والمعهد لمدة ثلاث وثلاثين سنة » •

وكان الهدف من وراء هذا المشروع هو « خلق جيل من المتعصبين للفرعونية ثقافيا وسياسيا » جيل يكره العروبة ولا يؤمن بها • (١)

وقد استخدم المليونير الامريكى عالما كبيرا من علمـــاء الآثار هو « برستد » لاقناع الحكومة المصرية بهذا المشروع • وهذا مثال واضح يدلنا على أن بعض العلماء قد باعوا أنفسهم لخدمة الاتجاهات الاستعمارية دون حرص على كرامة العلم وضمير العلماء •

ومن حسن الحظ أن الحكومة المصرية فى ذلك الحين قد رفضــت المشروع • بعد أن كشف المثقفون المصريون هدفه الحقيقى • وكشـــفوا الهدف الكامن وراء الشروط التى وضعها المليونير الامريكى فليس فى مصر مثقف مستنير ينكر الحضارة الفرعونية العظيمة أو احياءثقافتهاوفنونها ولكن ليس فى مصر من أبنائها المخلصين من يرضى باستغلال هذا التراث الحضارى لقطع صلة مصر بالوطن العربى والثقـــافة العربية ، كما كان الاستعمار يريد أن يفعل •

وهذه المحاولة نفسها أراد الاستعمار أن يجربها فى الشام باحيـــاء الحضارة الفينيقية القديمة وفى العراق باحياء الحضارة القديمة فى بابل وأشور •

ولكن هذه المحاولات التى لجأ اليها الاستعمار لابادة الثقافة العربية قد تم كشفها ووقف الوطن العربى فى وجهها •

---

(١) الاتجاهات الوطنية فى الادب المعاصر ــ الدكتور محمد حسين ــ الجزء الثانى

ولن يستطيع الاستعمار أن يقضى على الثقافات الآسيوية والافريقية العريقة والناشئة على السواء بعد أن بدأت يقظة آسيا وافريقية على نطاق واسع .. لن يستطيع الاستعمار أن يفعل ذلك الا بابادة آسيا وافريقية من خريطة العالم . وهى المحاولة التى سوف تحطم الاستعمار نهائيا والتى لن ينجح فيها بشراء العلماء والمستشرقين والمبشرين ، ولن ينجح فيها بالذرة والصواريخ والاساطيل . لان آسيا وافريقية قد بدأتا تعودان الى طريق الحضارة مسلحتين بايمان عميق بالعلم الحديث . وايمان عميق بالعدل الاشتراكى وايمان عميق بالشخصية الخاصة المتميزة للآسيويين والافريقيين .

اقتصرت التطبيقات العملية فى هذا المقال على تجربة الاستعمار فى الوطن العربى الممتد من الخليج العربى فى آسيا الى المحيط الذى يفصل افريقية عن أوربا

أدباء حائرون

فى كل مجتمع اشتراكى بل فى كل حركة اشتراكية محاولة قوية الى اخراج الأدباء من التجربة الفردية الى التجربة الجماعية • والأمل الكبير الذى يحس به المجتمع الاشتراكى الناضج أو الحركة الاشتراكية الناضجة هو أن يحقق الأدباء هذا الانتقال بصدق وأصاله لا مجرد مسايرة للرأى العام أو نفاق للسلطة الجديدة فى المجتمع الاشتراكى وهى سلطة الجماهير •

والانتقال الأصيل الى التجربة الجماعية هو وحده الذى يحافظ على الجمال الأدبى وهو مبدأ جوهرى لاينبغى أن تشوهه تجربة جماعية أو تجربة فردية • أما الانتقال الزائف فانه يجعل من الأدب مجرد دعاية ، ويجعل من الأديب مجرد خطيب أو واعظ أو قسيس يقدم الى الناس نصائح وينهاهم عن المنكر ويأمرهم بالمعروف • وقد نجد فى هذا النوع من الأعمال كل شيء الا الأدب ، لأن الادب الصادق ليس فيه وعظ ولا ارشاد ولا دعاية صارخة •

وقد عرفنا فى حياتنا الأدبية هذا الانتقال السطحى الزائف الى « التجربة الجماعية » وكان هذا الانتقال فى معظمه خاليا من الأصالة والصدق • كان هناك مئات من القصائد تتحدث عن الجماهير وتحكى عن تجربة الجماهير •• ولكنها انتهت فى الواقع الى نتيجة سيئة • لقد كان مصيرها بعد وقت قصير هو سلة مهملات الحياة الأدبية •

ولكن هذا الانتقال الزائف الى التجربة الجماعية لايجوز أن يدفعنا الى اليأس المطلق والشك المطلق فى ضرورة الانتقال الى هذه التجربة ، فلا شك أن حياة الفلاحين والعمال فى ميدان الواقع وميدان

الروح مليئة بالمادة الفنية الخصبة العميقة وليس من المعقول أن يكون مجتمعنا متجها الى الاشتراكية بكل قواه ••• أى الى التفتح والازدهار والحرية والعدل ، ثم يكون انتاجنا الأدبى الأصيل كله أدبا حزينا يعبر عن تجربة فردية وعن احساس عميق بالأسى والغربة والتمزق • وهذه الموضوعات كلها مشاعر انسانية لاشك فى صدقها ، ولا يمكن أن نصدر قرارا بحرمان الفنان من معالجة مثل هذه الموضوعات ، لأننا نكون بذلك قد منعنا الفنان من الاتصال ببعض المنابع الأصيلة للفن •

لقد ظهر فى الفترة الأخيرة ـ على سبيل المثال ـ عدد من الشعراء الشعبيين الممتازين أمثال فؤاد قاعود وسيد حجاب والابنودى • ومعظمهم وفد الى القاهرة من الريف ومن بيئات شعبية فى المدن الصغرى ومع ذلك فهؤلاء الشعراء الشعبيون لايختارون لفنهم موضوعات أفضل من : الحزن واليأس والغربة والجنون • وهم دون شك صادقون مع أنفسهم لأنهم يعبرون تماما عما يحسون به •

وهكذا نجد معظم انتاج الجيل الجديد من الأدباء مشحونا بهذه الأحاسيس الحزينة التى لاينكرها أحد ولايعترض عليها أحد ، ولكن السؤال هو : أين التعبير الفنى الصادق عن الجوانب الجديدة فى حياتنا ؟ أليس فى حياتنا آمال جديدة تتفتح ، وتجارب أصيلة تنمو وتزدهر ؟ لاشك أن هذه التجارب والآمال موجودة • فماهو السبب الذى يحول بين أدبائنا وبين التعبير عنها ؟

لاشك أن الأدباء أنفسهم مسئولون فمن واجبهم أن يتقدموا خطوات نحو فهم الواقع الجديد والتعبير عنه ، ولكن السبب الجوهرى ليس هو الأدباء أنفسهم بل هناك سبب آخر هام هو أن الأديب مازال فى مجتمعنا يعيش فى عزلة روحية كاملة لاتتيح له أن يتحرك حركة واسعة ويجرب ويتعرف على الواقع بصورة قوية صحيحة •• ولذلك لم يبق أمام الأديب الجديد غير تجاربه الذاتية ورؤيته المحدودة الخاصة للحياة •

ان الأديب فى العصور الماضية كان يعيش فى ظل الطبقات الحاكمة تطعمه وتهيىء له وسائل الانتاج لأنها كانت تجد فيه متعة وتسلية ، كما كانت تجد فيه أيضا وسيلة من وسائل تدعيم نفوذها والدعاية لها • ولا نهاية للأمثلة التى تؤكد هذه الظاهرة سواء فى أدبنا العربى القديم أو فى الأدب الغربى القديم •

أما الآن فقد تغير الوضع •• وأصبح من الضرورى ألا يكون الاديب ــ خاصة فى المجتمع الاشتراكى ــ كائنا وحيدا معزولا يهمله المجتمع ولا يقيم له أى وزن • على العكس يجب على المجتمع الاشتراكى أن يرعى الأديب ويفتح الطريق أمام أية موهبة أدبية وأن يضع هذه المواهب فى قلب تنظيماته الشعبية حتى تستطيع أن تكون على صلة بالواقع ••• بحيث تستطيع أن تعرفه وتفهمه وتنفعل به وتؤثر فيه •

وعزلة أدبائنا عن التنظيمات الشعبية السابقة مثل الاتحاد القومى هى التى جعلتهم بعيدين عن حركة الثورة الاشتراكية فى الواقع• وهى التى دفعتهم الى الاحساس بالوحدة وعدم الانتماء الى الجماعات والاقتصار على التجربة الفردية •

ومما لاشك فيه أن التجربة الفردية فى الفن على غاية من الأهمية والقيمة • ولكن الاقتصار عليها يعتبر شيئا غريبا لايمكن أن يتناسب مع مجتمع اشتراكى صادق الاتجاه نحو الاشتراكية •

ولكن كيف يمكن أن يتحقق الانتقال من التجربة الفردية الى التجربة الجماعية انتقالا أصيلا صادقا لا اصطناع فيه ؟

أمامنا تجارب محلية وعالمية فى هذا الميدان •

لقد عاش الكاتب والفنان الفرنسى جان بول سارتر فترة طويلة فى أول حياته غارقا فى أحزانه الذاتية وهمومه الخاصة غارقا فى تجربته الفردية مما عبر عنه انتاجه الأدبى فى هذه المرحلة وعلى رأسه روايته الشهيرة « الغثيان » التى تثبت كما قال أحد النقاد أنه لاشىء يبرر الوجود فى الظروف الطبيعية • وأن الانسان كائن فارغ ضال •

ولكن سارتر الآن يؤمن بأن كثيرا من الطرق المسدودة فى التجربة الفردية تفتحها التجربة الجماعية أمام الانسان • ان سارتر منذ سنة ١٩٤٣ عندما دخل بكل قوته الفكرية والعملية فى حركة المقاومة ضد الألمان أصبح يؤمن بالتجربة الجماعية ويتصرف بوحى منها وهى التجربة التى يسميها باسم « التضامن البشرى » •

كيف استطاع سارتر أن يحقق هذا •

لقد دخل أولا حركة المقاومة الفرنسية المنظمة وتعلم منها الكثير ، ثم اتصل بالحزب الشيوعى الفرنسى ثم اختلف معه وثار عليه ونفض يده منه • الا أنه لم يعد الى قوقعته الذاتية ، بل أنشأ سنة ١٩٤٨ بالاشتراك مع بعض أصدقائه حزبا بإسم « الكتلة الديموقراطية الثورية » ولكن الحزب لم يحظ بالتأييد العمالى الذى كان يرجوه وانتهى الى الفشل •

وعندما فشل حزبه جمع عددا من المثقفين المؤمنين مثله بالحرية والعدل وأنشأ مجلته الشهيرة « العصور الحديثة » وفتح قلبه وعقله ومجلته لكل الحركات الثورية الواعية الصادقة فى العالم •• وكان من أهم القوى التى اتصل بها سارتر قوة « جبهة التحرير الجزائرية » وظل سارتر حتى اليوم عى رأس الفرنسيين الذين يساندون بالفكر والعمل ثورة الجزائر واستقلال الجزائر •

ولنأخذ أدباء الجزائر كمثال آخر على الخروج من التجربة الفردية الى التجربة الجماعية مع الاحتفاظ بقوة أدبهم وأصالته •• ان مالك حداد ومحمد ديب وكاتب ياسين والفنان الذى قتله الفرنسيون منذ شهور : مولود فرعون •• كل هؤلاء الأدباء استطاعوا أن ينتقلوا الى التجربة الجماعية عن طريق ارتباطهم وانتمائهم الى جبهة التحرير الجزائرية التى قربتهم من تجربة الشعب ، ورفعتهم فى عيون الناس ، وصقلتهم وشحنتهم بالأحزان الكبيرة والآمال الكبيرة التى يعيش فيها الجزائريون • ولذلك لم يحدث أن فكر واحد منهم

في مجرد الخلاص الفردى ونسيان شعبه وبلاده . لقد قدمت لهم فرنسا شتى الاغراءات المادية والمعنوية لكى يعيشوا فى طمأنينة وسعادة بمعزل عن التجربة الجزائرية الصعبة ولكنهم رفضوا ذلك تماما ، فقد أعطاهم ارتباطهم بجبهة التحرير صلابة وقوة ودفعهم الى الالتزام الذى لايتردد بالتجربة الجماعية لشعبهم .. فى أدبهم وفى سلوكهم .

ومثال ثالث يقدمه لنا أديب عالمى آخر هو برناردوشو . لقد كان مسرح شو مسرحا فكريا اجتماعيا يشير ويلح على التغيير الاجتماعى فى الاتجاه الاشتراكى .. فمن أين ظهر برناردشو .. الاشتراكى الثائر الحر ؟ لقد تخرج فى « الجمعية الفابية » حيث درس الاشتراكية وكتب وناقش وحاضر عن الاشتراكية . بل ودرس العمال وبيئاتهم الاشتراكية دراسة عميقة . ولولا تجربة الجمعية الفابية لظل برناردشو منطويا على همومه الفردية الخاصة ، لايرى لنفسه عملا فكريا وفنيا سوى التعبير عن هذه الهموم .

وهذا هو بالضبط مانحن بحاجة اليه اننا بحاجة الى قيام الاتحاد الاشتراكى العربى على أحسن صورة وأقوى صورة على أن يتاح للأدباء أن يرتبطوا بهذا التنظيم الثورى الاشتراكى ، وعن طريق هذا الارتباط سوف يتاح لهم معرفة الواقع معرفة واسعة .. فى القرية والمدينة ، بين الفلاحين والعمال ، سوف يعرفون الواقع المادى والواقع النفسى للشعب ، وسوف يجدون من خلال هذه لمعرفة مادة فنية خصبة ، سوف تكون حتما سببا فى تغيير نفسيتهم وانطباعاتهم عن الحياة ، وسوف تكون سببا فى خروجهم بالقدر الممكن من تجربتهم الفردية التى يحصرون أنفسهم فيها الآن ..

ان هذا الحصار النفسى سوف تزول أجزاء منه لتدخل تيارات الواقع الحى الى تجربتهم الأدبية . ان الانتماء العميق الصحيح الى تنظيم شعبى لم تتح فرصته حتى اليوم لأدبائنا لا فى الاتحاد القومى ولا فى الجمعيات الأدبية المختلفة .

عندنا على سبيل المثال « جمعية الأدباء » ولكنها جمعية فاقدة للحياة تماما ، وقد بلغ من فقدانها للحياة أن المسئولين فيها كانوا يرجون بعض أعضائها أن يرشحوا أنفسهم فى انتخابات المؤتمر الوطنى . لأن موعد الترشيح أوشك أن ينتهى دون أن يتقدم العدد المطلوب . وقد نجح الذين تقدموا بالتزكية .

والجمعية لم ترفع صوتها فى يوم من الأيام لا فى قضية عامة ولا فى قضية خاصة بأحد الأدباء . انها « تنظيم أدبى » معطل ، والواجب بالطبع أن تنضم هذه الجمعية الى الاتحاد الاشتراكى وأن تتخلص من « العنكبوت » الذى يملأ أفكارها ومشروعاتها .. يجب أن تساهم مساهمة كبيرة فى أن يتعرف الأدباء على بلادهم بعمق وأن يتخصلوا من الظروف التى لاتتيح لهم فى نهاية الأمر الا « تجربة فردية » تبعدهم عن واقع بلادهم وتغرقهم فى مشاكلهم الخاصة ، وتجعل منهم كائنات وقوى غير مسئولة عن شىء ولا أهمية لها .

ان الاتحاد الاشتراكى يجب أن يعطى مثل هذه الجمعية جرعات قوية من الحياة وبذلك يصبح الأديب الجديد فى مجتمعنا منتميا ، ويستطيع أن يجد الفرصة الصحيحة للتعبير عن « التجربة الجماعية لشعبه دون أن يفقد اصالته الفنية ودون أن يفتعل أحاسيس لا يعرفها أو يتصور واقعا لم يختبره اختبارا عميقا .

من سلسلة ذاكرة الكتابة

71- ملوك وصعاليك .... صالح جودت

72- أبي شوقي .... حسين شوقي

73- ابراهام لنكولن .... محمود الخفيف

74- قصة الميكروب .... د. بول دى كرويف

75- رائد الفكر المصرى الإمام محمد عبده .... د. عثمان أمين

76- مدامع العشاق .... زكى مبارك

77- تاريخ المسرح العربى .... د. فؤاد رشيد

78- رجل فى القاهرة .... رشدى صالح

٧٩- قصة قناة السويس .... د. مصطفى الحفناوى

80- نوبار فى مصر .... نبيل زكى

81- تلاقى الأكفاء .... على أدهم

82- أعلام الفن القصصى .... هنرى توماس

83- إثنى عشر عاماً فى صحبة أمير الشعراء .... أحمد عبد الوهاب

84- حياة طبيب .... د. نجيب محفوظ

85- قصة الغناء والموسيقى فى مصر .... أحمد عبد المجيد

86- بعض مؤرخى الإسلام .... على أدهم

87- مؤامرة فى افريقيا .... أحمد بهاء الدين



ربما لم تعد بعض الأفكار والآراء التى احتواها الكتاب صالحة الآن لأن الزمن قد تجاوزها أو أن تيار الأحداث قد جرف فى طريقه الكثير منها، وربما لم يفقد بعضها الآخر صلاحيته إلا أنه فقد ما كان له فى حقبتى الخمسينيات والستينيات من شيعة وأنصار.. ومن المحتمل أن رجاء النقاش قد عدل عن أو عدل من قليل أو كثير من هذه الأفكار والآراء إلا أن ما هو مؤكد أن الكتاب لا يزال يحمل بين سطوره جوهر موقف رجاء النقاش فى كثير من القضايا التى تتفرع إليها محاور الكتاب، الأدب والعروبة والحرية.



وزارة الثقافة
الهيئة العامة لقصور الثقافة

www.culturepalaces.com.eg
www.gocp.gov.eg
www.qatrelnada.com.eg
www.althaqafahigadidah.com.eg
www.odabaaelaqaleem.com.eg

الثمن : خمسة جنيهات
تصميم الغلاف : فكرى يونس